سلسلة المفهومات القرآنية

الأسماء والكلمات والكتاب

د. عبد الرحمن حللي



دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع

دار الريادة للنشر والتوزيع

الأســـــماء والكلمات والكتاب

سلسلة المفهومات القرآنية



سلسلة المفهومات القرآنية

الأسماء والكلمات والكتاب

د. عبد الرحمن حللي





التّصنيف والرّقم الموضوعيّ: دراسات قرآنيّة (211,9)

العنوان: المفهومات القرآنيّة (الأسماء والكلمات والكتاب)

التأليف: د. عبد الرحمن حللي

عدد الصّفحات: 86 – قياس: 14×20

التّرقيم الدوليّ: ISBN: 978-9933-9050-5-7

الطّبعة الأولى

1432 هـ / 2011 م



سورية ـــ حلب

هاتف: 2214967 / 96321+ – تلفاكس: 2289341 /96321+

E-mail:info@dar-almultaka.net

دار الريادة
للنشر والتوزيع

سورية ـــ دمشق

هاتف: 2245145 /96311+ – تلفاكس: 2245840 /96311+

ص.ب: 11881

E-mail: arriyadah@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله الذي علم آدم ﷺ الأسماء كلها، وابتلى إبراهيم ﷺ بكلمات، والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ خاتم النبيين، خاطبه ربه فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة/٤٨]، وبعد:

فإن دراسة المفهومات عموماً والقرآنية خصوصاً من الدراسات الصعبة والدقيقة لما تحتاجه من جهد، ولما يعترضها من صعوبات لعل أهمها جدتها وعدم تبلور منهجيتها، وقد أشرنا في "المدخل إلى دراسة المفهومات القرآنية" إلى هذه المعوقات المنهجية وحاولنا رسم خطوات تساعد في بلورة منهج لدراستها، وخلصنا إلى عسر تحقق تلك الخطوات بالجهد الفردي، مع إمكانية الاجتزاء ببعضها، وعليه سنعتمد في دراستنا هذه استقراء المعاني اللغوية للمفردات التي سندرسها واستخلاص المعنى المركزي الذي يشكل الخيط الرابط بينها، ثم تتبع ورود تلك المفردات في القرآن وتصنيف سياقاتها وتحليلها وربط ذلك بالمعنى المركزي اللغوي، وملاحظة تَنَزُّلات تلك المفردة في السياقات القرآنية والروابط بينها، وما قد يشير إليه ذلك من معنى مركزي قرآني لتلك المفردة في بنية النص القرآني، وما يفيده ذلك من دلالات في بناء التصور الذي يؤسسه القرآن من خلال تلك المفهومات.

قد يبدو مثيراً طرح مفردات الأسماء والكلمات والكتاب بين المفهومات القرآنية ذات الدلالات الخاصة التي تتجاوز المعنى اللغوي، لاسيما وأن معظم المدونات التفسيرية قد تعاملت مع مفردتي "الأسماء والكلمات" كمعنى لغوي بحت، لكن تأملنا في مختلف الآيات التي ورد فيها اللفظان أثار لدينا تساؤلاً حول فرضية أن يكون لهما معنى غير المعاني اللغوية المتداولة.

فالأسماء التي عُلِّمها آدم كانت الجواب الإلهي الذي أبطل وهم الملائكة أن خلافة الإنسان في الأرض متمحضة للفساد وسفك الدماء، فهل ما ورد من تفاسير في معاني الأسماء كاف لمنع ما توهمه الملائكة ؟ فلفظ الأسماء مرتبط بتكوين الإنسان، وتعليم آدم يعم جنس الإنسان.

أما الكلمات فقد تلقاها آدم عليه السلام، وابتلي إبراهيم عليه السلام بكلمات، وعيسى عليه السلام وصف بأنه كلمة من الله، ويحيى عليه السلام مصدق بكلمة منه، والرسول الخاتم ﷺ يصدق بكلمات الله، وفضلاً عن هذه السياقات التي تخص ذكر الأنبياء فقد وردت الأسماء والكلمات في آيات أخرى كثيرة وبمواضيع مختلفة تعزز إعادة النظر في دلالة اللفظين واعتبارهما إشكاليين.

أما الكتاب فإنه مفهوم لا يقل أهمية وإثارة في القرآن، فلا تخفى صلته بالأسماء والكلمات، وله صلة بمجمل الأنبياء معاً، كما له خصوصية ببعض الأنبياء، ونرى الكتاب في القرآن تارة يحيل إلى وحي إلهي منزل، وتارة أخرى يشير إلى خلق إلهي محكم، فأية علاقة بين الوحي الإلهي الذي هو الكتاب، والتكوين الإلهي المتجلي في الخلق والكون، وأية صلة بين مفهوم الكتاب وبين الأسماء والكلمات.

سنحاول في هذه الدراسة أن نستطلع تجليات هذه المفهومات في النص القرآني، ونستخلص ما تسهم به في الكشف عن إحكام بنية النص القرآني وتفصيل آياته.

د.عبد الرحمن حللي

مفهوم الأسماء

الاسم في اللغة:

الاسم مشتق من السمو وهو الرفعة، والأصل فيه سمو وهو أصل تأسيسه، لأنه تنويه ورفعة، وقال الكوفيون إنه مشتق من السمة والعلامة لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصله عندهم مأخوذ من وسمت، لكن معظم المعاجم استبعدت الاشتقاق الثاني لتنافية مع الاشتقاقات الأخرى للفظ، فالاسم رسم سمة توضع على الشيء تعرف به، واسم الشيء علامته، والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه من بعض أو ما يعرف به ذات الشيء، والاسم الذِّكر، والاسم هو المسمى يقال سميٌّ فلان إذا وافق اسمه اسمه[1]، وقد وجدت

---

(1) انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي (القاهرة:دار ومكتبة الهلال، د.ت) ج٧ ص٣١٩، ابن منظور، محمد بن علي، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط:١، د.ت) ج:١٤ ص٤٠١-٤٠٢-٤٠٣، الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط (د. ط، د.ت) ص:١٦٧٢، الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥) ص:١٣٣، الزمخشري، محمود، أساس البلاغة (بيروت: دار صادر، ط:١، ١٩٩٢) ص:٣٠٩، الأصفهاني،الحسين بن محمد الشهير بالراغب، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي (دمشق: دار القلم، ط:٢٠٠٢،٣) ص:٤٢٨.

عبارة للألوسي تجمع بين الاشتقاقين فذكر أن الاسم "باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن من الألفاظ الموضوعة بجميع اللغات والصفات والأفعال واستعمل عرفاً في الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركباً مخبراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما وكلا المعنيين محتمل"[1] .

فالاسم بناء على ذلك يكون العلامة الموضوعة على الشيء تسمو به، فمن حيث كون الاسم علامة على الشيء يعتبر اشتقاقه من الوسم، ومن حيث رفعة الشيء بتسميته يعتبر الاشتقاق من السمو، والمعنيان متلازمان في الاسم، فلا رفعة للشيء بالنسبة للمعني بالاسم من غير علامة ترفعه وتسمو به، ويحتاج الشيء لعلامة ما يرتفع ويسمو بها ويتميز عن غيره .

الأسماء في القرآن الكريم :

ورد لفظ الأسماء بصيغة الجمع اثنتا عشرة مرة فيما ورد لفظ الاسم مفرداً أربعاً وعشرين مرة، ووردت صيغة الفعل منه ثمان مرات، واقترنت صيغة مسمى بالأجل عشرين مرة، وقد تناولت مختلف الصيغ معان اختصت بها سياقات الآيات، وسنحاول تناولها حسب موضوع الآيات التي

---

(1)انظر:الألوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بيروت:دار إحياء التراث العربي) ج١ ص٢٢٣-٢٢٤.

وردت فيها:

- الأسماء التي تعلمها آدم عليه السلام:

ورد ذكر الأسماء التي عُلِّمها آدم عليه السلام أربع مرات في سياق بيان جواب الله على الملائكة في تساؤلهم عن الإفساد وسفك الخليفة في الأرض للدماء، وورد فيها بيان تعلم آدم عليه السلام كل الأسماء وجهل الملائكة بها وإعلام آدم الملائكة بها، ولم يرد ذكر أسماء آدم في غير موضع واحد في القرآن رغم تكرار ذكره في أماكن عديدة[1]، وقد تعاملت معظم التفاسير في تحديد معنى الأسماء على أنها الاسم بمعناه اللغوي أعني العلامة على الشيء التي تميزه عن غيره، وضمن هذا الإطار ذكروا فيها قولان:

الأول: أنه علمه كل الأسماء أي أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها وهي الأسماء التي يتعارف بها الناس من إنسان ودابة وأرض و...وأشباه ذلك من الأمم وغيرها، وهو الذي يقتضيه ويؤكده لفظ كلها إذ هو اسم موضوع للإحاطة والعموم.

والثاني: أنه علمه أسماء معدودة لمسميات مخصوصة وفي تحديدها

---

(1)الآيات هي:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣)﴾ (البقرة) .

أربعة أقوال:(- أسماء الملائكة خاصة. - أسماء الأجناس دون أنواعها كقولك إنسان وملك وجني وطائر. - أسماء ما خلق من الأرض من الدواب والهوام والطير. - علمه أسماء ذريته.)، ورجح الإمام الطبري أن أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة دون أسماء سائر أجناس الخلق[1].

أما الراغب الأصفهاني فقد اعتبر تعليم الأسماء هو تعليم الأصول المشتملة على الفروع والمعاني الكلية المنطوية على الأجزاء والقوانين التي يعرف بها حقيقة الشيء أما معرفة الجزئيات متعرية عن الأصول فليس بعلم[2].

واعتبر آخرون أن المراد أسماء كل ما خلق الله تعالى من أجناس المخلوقات بجميع اللغات التي يتكلم بها ولده اليوم[3].

---

(1) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت:دار الفكر،١٤٠٥هـ)، ج١ ص٢١٥- ٢١٦، ملاحظة:سنختصر أسماء التفاسير المشهورة بكلمة التفسير بعد ذكر اسم المؤلف وذلك عند التكرار.

(2) انظر: الأصفهاني، الراغب، تفسير سورة البقرة، محقق ضمن أطروحة جامعية من إعداد:محمد إقبال فرحات، الراغب الأصفهاني ومنهجه في التفسير مع تحقيق تفسير سورة البقرة، دكتوراه - المعهد الأعلى لأصول الدين - جامعة الزيتونة ١٩٩٨، ص:٢٠٢-٢٠٣.

(3) انظر أقوال المفسرين في المصادر السابقة وفي: القرطبي،محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني (القاهرة: دار الشعب، ط:٢، ١٣٧٢هـ) ج١ ص٢٨٢، ابن الجوزي،جمال الدين أبو الفرج، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت:المكتب الإسلامي، ط:٣، ١٤٠٤هـ) ج١ ص٦٢-٦٣، الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (بيروت:دار الفكر، د.ت) ج١ ص٦٤.

وقال بعضهم علمه جميع اللغات، وبناء على هذا التفسير قالوا إن اللغات توقيفية إذ الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم[1].

وبعيداً عن هذه التأويلات نجد الحكيم الترمذي يطرح رؤية أخرى تربط الأسماء التي علمها آدم بالأسماء في آيات أخرى فيرى أن الأسماء التي علمها آدم هي أسماؤه تعالى، ويرجح هذا القول الألوسي الذي نقل رأي الترمذي وبرره بأنه هو الذي يقتضيه منصب الخلافة، ويقال لها أسماء الله تعالى عند الصوفية باعتبار دلالتها عليه وظهوره فيها غير متقيد بها، ولهذا قالوا إن أسماء الله تعالى غير متناهية إذ ما من شيء يبرز للوجود من خبايا الجود إلا وهو اسم من أسمائه تعالى[2].

وذهب بعض المتأخرين إلى أن المقصود بالأسماء مفاهيم التوحيد وأمهات الأخلاق الدينية وأنها هي فحوى رسالة آدم[3].

---

(1) انظر:البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل (تفسير البغوي)، تحقيق:خالد العك، بيروت:دار المعرفة، ط:2، 1987) ج1 ص61، انظر: البيضاوي، أبو عبد الله محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، تحقيق: عبد القادر العشا، (بيروت:دار الفكر،1996) ج1 ص291، الجصاص، أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي،1984) ج1 ص37.

(2) انظر: الألوسي، روح المعاني، م.س، ج1 ص224

(3) انظر:شاهين، عبد الصبور، أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، (القاهرة:دار الروافد الثقافية، 1998) ص135-136.

وفي بيان معنى التعلم أكدوا أنه يشمل الأسماء بمعانيها إذ لا فضيلة في معرفة الأسماء دون المعاني، فالمراد أسماء المسميات[1].

هذه التقييدات والتوضيحات أحالت على إشكالية أخرى هي العلاقة بين الأسماء والمسميات والأشياء، فالاسم قد يطلق ويراد به المسمى أو التسمية ذاتها، وقد يجري اسم في اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من استعمالها، ويجري مجرى الذات يقال ذات ونفس وعين واسم بمعنى واحد، والأشياء متعلقة بالمسمى لا بالاسم[2].

وقد حاول بعض المتأخرين الخروج من هذه الإشكالية بالتفريق بين اسم العلم والاسم المحمول، واعتبر ما ذكره المفسرون من قبيل أسماء الأعلام (شجر وحجر...) وأنهم تأثروا في ذلك بالميراث اليهودي، أما الاسم المحمول فهو الذي تعلمه آدم ويقصد به الاسم المتعلق بخصائص وهوية الحامل له مثل زوج وزوجة وابن ...، واعتبر أن الملائكة لم تكن

---

(1)انظر: الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، م.س، ص:٢٠٣ ، العمادي، محمد أبو السعود، إرشاد ذوي العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، (بيروت:دار إحياء التراث العربي، د.ت) ج ١ص٨٦، الجصاص، أحكام القرآن، م.س، ج١ ص٣٧، الشوكاني، فتح القدير، ج١ ص٦٤، ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر ١٩٨٤) ج١ ص٤٠٩.

(2)انظر القرطبي، التفسير، م.س، ج١ ص٢٨١-٢٨٢، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج١ ص٦٤، وحول العلاقة بين الاسم والمسمى والتسمية انظر: الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، (قبرص:الجفان والجابي، ط:١، ١٩٨٧) ص٢٤ وما بعدها .

تعلم الأسماء المحمولة هذه[1]، لكن ما ذكره المفسرون من شمول الأسماء لتعليم ذوات الأشياء وكلياتها .. يجعل هذا التفريق فذلكة لفظية دقق فيها السابقون بعمق.

ولعل ابن تيمية كان أوضح من عالج العلاقة بين الأشياء والألفاظ والمعاني باعتبار الأسماء ألفاظاً، فاللفظ الدال على المعنى أو الموضوع له لا بد مسبوق بتصور المعنى فمن لم يتصور مسمى الماء والسماء والأرض والأب والأم لم يعرف دلالة اللفظ عليه[2]، والأشياء لها وجود في أنفسها وهو وجودها العيني ولها ثبوتها في العلم ثم في اللفظ المطابق ثم في الخط، فلها وجود عيني ووجود علمي ولفظي ورسمي[3]، فالشيء الموجود يتعلق

---

(١) انظر:حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، (بيروت:نشر دار ابن حزم، ط:٢، ١٩٩٦) ج١ ص١٠٢-١٠٣.

(٢) وقد عمم ابن تيمية هذا المعنى على الحدود التعريفية فاعتبرها مجموعة من الأسماء، فقال :"وهذا كما أنه مذكور في دلالة الأسماء على مسمياتها المفردة فهو بعينه وارد في دلالة الحدود على المحدودات إذ كلاهما إنما يدل على معنى مفرد لكن الحد يفيد تفصيل ما دل عليه الاسم بالإجمال ، فليس الحد في الحقيقة إلا اسما من الأسماء أو اسمين أو ثلاثة كقولك حيوان ناطق وكذلك قيل في تعليم آدم الأسماء كلها تعليم حدودها وهي من جنس الحدود المذكورة في قوله تعالى:وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله" ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الرد على المنطقيين (بيروت:دار المعرفة، د.ت) ص١٠.

(٣)انظر:ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية،

بثلاثة اعتبارات المعنى الذهني واللفظ الدال عليه والرسم أو الخط، فالخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق المعنى والثلاثة تتناول الأفراد الموجودة في الخارج[1].

هذه المقاربات والتحديدات لم تحسم الإشكال المتعلق بطبيعة الأسماء التي علمها آدم عليه السلام لكنها أوضحت الإطار الذي تدل عليه لفظة الأسماء لغوياً ومنطقياً وعلاقتها بالمعنى والشيء الذي ترتبط به، لذا فإن السؤال المحور حول كون تعلم الأسماء عاصماً من الإفساد في الأرض وسفك الدماء لم تجب عنه تأويلات المفسرين ولا تحديد علاقة الأسماء بالأشياء، وسنتناول تالياً السياقات التي تتعلق باسم الله وأسمائه الحسنى.

- اسم الله وأسماؤه الحسنى :

إن أول ما يطالع قارئ القرآن افتتاحية كل سورة أو ما يعرف بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) وأول آية أنزلت من القرآن تحمل لفظ الاسم مقترناً بأول تكليف إلهي للإنسان ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق:١]، وقد تكرر في القرآن اقتران لفظ الاسم بالله وبالرب مرات متعددة.

تحقيق: محمد السيد الجليند، (دمشق:مؤسسة علوم القرآن، ط:١٩٨٤،٢)، ج٢ ص١٩٥، الرد على المنطقيين، م.س، ن.ص، الغزالي، المقصد الأسنى، م.س، ن.ص.

(١)انظر:ابن تيمية،درء تعارض العقل والنقل (الرياض:دار الكنوز الأدبية، ١٣٩١هـ) ج٥ ص١٠٠، أيضاً:له المرجع السابق، ن.ص .

فذكر اسم الله على لسان نوح عليه السلام عند أمر قومه بركوب الفلك[1]، وعلى لسان سليمان عليه السلام مفتتحاً رسالته باسم الله إلى ملكة سبأ[2]، أما الآيات الأخرى التي وردت فيها صيغة (اسم الله) أو الضمير المضاف إلى الاسم العائد إلى الله فجميعها تقترن بالأمر بذكر الله والحديث عنه، إما على الذبح والصيد[3]، أو في مكان خاص/ المساجد[4]، أو زمان خاص/ أيام معلومات[5]، أما إضافة الاسم إلى الرب والمعني به دائماً الله، فقد جاءت في تسع آيات واحدة تخبر بتبارك اسم الله[6]، والباقية كلها تقترن بتكليف إلهي إما الأمر بالقراءة، أو بذكر الله والتبتل إليه والصلاة، أو بتسبيحه[7].

هذه الصيغ جاءت بصيغة الاسم المفرد وقد وردت صيغ أخرى بالجمع وهي ما عرف بالأسماء الحسنى التي جاءت الآيات تنسبها لله وتأمر بدعائه بها وتنهى عن الإلحاد في أسمائه[8]، هذه الأسماء التي ذكرها

(1) هود:41.

(2) النمل:30.

(3) المائدة:4، الأنعام:118-119-121-138، الحج:34-36.

(4) البقرة:114، الحج:40، النور:36.

(5) الحج:28.

(6) الرحمن:78.

(7) العلق:1، المزمل:8، الإنسان:25، الأعلى:15، الواقعة: 74-96 ، الحاقة:52، الأعلى:1

(8) الأعراف:180، الإسراء:110، طه:8، الحشر: 24 .

الله لنفسه وغيرها من الصفات قد تفرد بها، وأمر الإنسان بعبادته والاعتبار بها وتحداه أن يجد له سَمِيًّا[1] .

وقد اختلف المفسرون في المقصود من اسم الله أو الأسماء الحسنى، لا في تحديدها بل في إشكالية علاقتها بالذات والمسمى وكان للاختلاف فيها أثره في الجدل الكلامي، فذكروا في ذلك ثلاثة أقوال[2] :

الأول:الاسم هو المسمى لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى.

الثاني: المراد بالاسم والأسماء التسميات أو الألفاظ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به.

الثالث: المراد بالأسماء الصفات. فالأمر بتسبيح اسمه يراد به تسبيح المسمى لا تسبيح مجرد الاسم، ودعاء الاسم هو دعاء مسماه، وكذلك الذكر لأن الذكر الحقيقي محله القلب لأنه ضد النسيان والتسبيح نوع من الذكر فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك[3] .

---

(١) ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

(٢)انظر:القرطبي، التفسير، م.س، ج٧ ص٣٢٦، البيضاوي، التفسير، م.س ج٣ ص٧٧، ٤٧٢.

(٣)انظر:القرطبي، التفسير، م.س، ج١ ص٢٨١-٢٨٢ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم،

وأما النهي عن الإلحاد في أسمائه تعالى فالمقصود به العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات من الله والعزى من العزيز[1]، هذا الجانب هو ما اختصت به آيات أخرى تحدثت عن تسمية المشركين للأصنام.

- تسمية الأصنام :

وردت آيات متعددة تستنكر قيام المشركين باتخاذ أصنام لهم من دون الله وتسميتهم إياها بأسماء من عندهم، وقد جاء هذا الاستنكار بصيغة واحدة على لسان هود ويوسف ومحمد -عليهم السلام- ﴿أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ (أنزل) اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[الأعراف:٧، يوسف:٤٠، النجم:٢٣]، فيما وردت آيتان على لسان محمد ﷺ تستنكر تسمية الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى[2]، وأخرى تطلب من المشركين

مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن النجدي (الرياض:مكتبة ابن تيمية، د.ت) ج١٦ ص٣٢٣، ا ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، تحقيق:هشام عبد العزيز عطا وآخرون، (مكة:مكتبة نزار الباز، ط:١، ١٩٩٦) ج١ ص٢٣، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج١ ص٦٤ .

(1)انظر:البيضاوي، التفسير، م.س، ج٣ ص ٧٧-٤٧٢، ابن القيم، بدائع الفوائد، م.س، ج١ ص١٧٩.

(2) النجم:٢٧

أن يسموا شركائهم مع الله[1].

وقد ذكر المفسرون أن مورد استنكار الأنبياء على قومهم هو تسميتهم أوثانهم آلهة أرباباً شركاً منهم وتشبيهاً لها في أسمائها التي سموها بها بالله، وذلك تسميتهم اللات والعزى ومناة بهذه الأسماء وعبادتهم إياها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها، ولا تصح معاني تلك الأسماء للأصنام فكأنها أسماء فارغة، فكأنهم يعبدون الأسماء المجردة لأنها لا تصح معانيها[2].

والاسم هنا بمعنى المسمى، فهم قد عبدوا المسميات ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهي مجرد أسماء، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها[3].

وحول الطلب من المشركين أن يسموا شركائهم فالسؤال وارد على جهة التهديد والتبكيت والتوبيخ، يقال في الشيء المستحقر الذي لا يستحق

---

(1) الرعد:٣٣

(2)انظر:الطبري، التفسير، م.س ج١٢ ص٢٢٠، ج٢٧ ص٦١- ٦٢، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٣ ص٢٨٩، القرطبي، التفسير، م.س، ج٧ ص٢٣٧، ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، زاد المسير في علم التفسير (بيروت:المكتب الإسلامي، ط:٣، ١٤٠٤ هـ) ج٤ ص٢٢٦، الغزالي، المقصد الأسنى، م.س، ص:٣٧ .

(3)انظر:ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١ ص٢ ، ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج١٢ ص٢٧٦، ج٢٧ ص١٠٧-١٠٨ .

أن يلتفت إليه سمِّه إن شئت يعنى أنه أحقر من أن يسمى، والمعنى أنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى إنما يذكر ويسمى من ينفع ويضر، فقوله: سموهم أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم، أو بَيِّنوا أسماءهم أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة، وتسميتهم بإضافة أفعالهم إليهم، فإن سموها بأسمائها الصادقة عليها كالحجارة وغيرها من مسمى الجمادات وأسماء الحيوان التي عبدوها من دون الله فهذه أسماؤها الحق وهى تبطل ألوهيتها لأن الأسماء التي من لوازم الإلهية مستحيلة عليها، وذلك تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها[1].

هذا مجمل ما ورد من معطيات في التفاسير حول الآيات التي تحدثت عن أسماء الأصنام وتسميتها، ولم نجد من ربط أي سياق من تلك السياقات بما ورد عن الأسماء التي علمها آدم أو أسماء الله الحسنى.

---

(1)نظر:الطبري، التفسير، م.س، ج١٣ ص١٦٠، البيضاوي، التفسير، م.س ج٣ ص٣٣٢، ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر ١٤٠١ هـ) ج٢ ص٥١٧، القرطبي، التفسير، م.س، ج٩ ص٣٢٢-٣٢٣، أبو السعود، التفسير، م.س، ج٥ ص٢٤، الواحدي، أبو الحسن، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير الواحدي)، تحقيق:صفوان عدنان الداوودي، (دمشق:دار القلم، ط:١، ١٤١٥هـ) ج١ ص٥٧٤، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج٣ ص٨٥، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج١٣ ص١٦١، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج٤ ص٣٣٣، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، م.س، ج١٥ ص١٩٦-١٩٧، دقائق التفسير، م.س، ج٢ ص٣١٢-٣١٣.

أما بقية السياقات القرآنية التي وردت فيها مفردة الاسم ومشتقاتها فقد جاءت في الحديث عن تسمية بعض الأعلام القرآنية بأسمائهم كتسمية المسيح عيسى ابن مريم، ومريم، ويحيي، وأحمد، عليهم السلام، وكذلك تسمية عين في الجنة، وتسمية الله أتباع الرسول الخاتم بالمسلمين من قبل[1].

ووردت عبارة "أجل مسمى" في القرآن عشرين مرة والمقصود بالمسمى هنا المعين المحدد إذ التسمية تستلزم التعيين والتمييز عن الاختلاط[2]، وورد الاسم بمعنى الذكر في آية الحجرات[3]، وهذه سياقات استخدامها لغوي مألوف ومعهود.

دلالة الأسماء في القرآن:

أول ما يثير انتباه المتأمل في استشكال الملائكة قولهم: "وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"[4]، فكان الجواب بتعليم آدم الأسماء، وبتتبع ذكر

---

(١) آل عمران:٤٥-٣٦، مريم:٧، الصف:٦، الحج:٧٨، الإنسان:١٨ .

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج١٣ ص٨١ .

(٣)انظر:الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٢٦ ص١٥٥، ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ (الحجرات:١١).

(٤) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

الاسم في القرآن نجده يقترن بتكليف الإنسان بالتسبيح وأن هذا التسبيح يكون باسم الله(١)، مما يعني أن الأسماء هي وسيلة الكائن الجديد لتسبيح الله وتقديسه، وهذا يربط بين الأسماء التي تعلمها آدم ﷺ واسم الله وأسمائه الحسنى، وهو ما يحيلنا على رأي الحكيم الترمذي والذين اعتبروا الأسماء التي تعلمها آدم هي أسماء الله الحسنى والتي تتجاوز مجرد الألفاظ الواردة في القرآن، وهو ربط له أهميته، فالأسماء تدل على معنى يربط الكائن الإنساني بالقيمة المعرفية(٢)، والتي من خلالها يستطيع تسبيح الله والقيام بمهمة الاستخلاف في الأرض، فاسم الله هو علمه الذي يسعى إليه الإنسان، والذي علمه آدم ﷺ، وهو علة الاستخلاف في الرد الإلهي على اعتراض الملائكة(٣)، وتعلم آدم الأسماء إنما تم لا بلغة بعينها، إنما باللسان المطلق المتقدم على جميع الألسنة، بل وعلى اللسان الناطق(٤)، فالأسماء أسبق وأشمل من العلامات اللغوية الدالة على الأشياء، فهي تدل على معاني الأشياء وفهمها

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

(١)الواقعة:٧٤-٩٦، الحاقة: ٥٢، الأعلى:١، ومن الطرافة تكرار مفردة الأسماء التي علمها آدم أربع مرات أيضاً.

(٢) انظر:المرزوقي، أبو يعرب، في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني، (بيروت:دار الطليعة، ط:١، ٢٠٠٠) ص:١٢٥.

(٣)انظر: المرزوقي، أبو يعرب، شروط نهضة العرب والمسلمين، (دمشق:دار الفكر، ط:١، ٢٠٠١) ص١٨١.

(٤) انظر: أبو يعرب المرزوقي، المرجع نفسه، ص١٩١.

ومعرفتها وإدراك كينونتها، لذلك اعتبر ابن تيمية الأسماء التي تعلمها آدم من جنس حدود الأشياء التي تعرّف بها[1].

وبالتالي فالأسماء هنا ليست مجرد ألفاظ أو أعلام أو علامات على الأشياء، إنما هي معانيها ومعرفتها وملكة إدراكها، لذا فهي كلمة دالة على قيم معينة تعلمها آدم عليه السلام، وهذا التأويل إنما نستند فيه إلى نظرية أبي يعرب المرزوقي في الكتابة غير اللغوية السابقة على الكتابة اللسانية الصوتية التصويرية التي تجعل صورة مسمى الكلمة ذات مدلول هو غير مسماها: إنه اسمها، فلا يكون الاسم هو المدلول بالنسبة إلى الصورة إلا لأن الاسم قابل للدلالة المجازية، ومع اكتشاف الكتابة الصوتية إلى اللغة أخذت الكتابة واللغة مكانة أسمى من الأشياء نفسها، فصارت الأسماء المنطوقة والمكتوبة عوضاً عن المسميات، حتى إن فعل الخالق صار مجرد أمر لغوي (كن)، والنظام الوجودي صار سجلاً مطلقاً (اللوح المحفوظ)[2]، وبوسعنا تأسيساً على ذلك اعتبار الأسماء حاملاً للقيمة

---

(1) "فليس الحد في الحقيقة إلا اسماً من الأسماء أو اسمين أو ثلاثة كقولك حيوان ناطق وكذلك قيل في تعليم آدم الأسماء كلها تعليم حدودها وهي من جنس الحدود المحدود المذكورة في قوله تعالى:وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله" ابن تيمية، الرد على المنطقيين، م.س، ص١٠.

(2)انظر:أبو يعرب المرزوقي، في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني، م.س، ص١٨٨، وص١٥١وما بعدها.

المعرفية التي يتميز بها الكائن الإنساني عن الملائكة.

فالأسماء بما هي مُعَلَّمة من قبل الله وممكنة من قبل الإنسان، هي الوسيط بين الإلهي والإنساني في إدراك الكون واستخلاف الإنسان فيه، ولعل معنى الرفعة والسمو كأصل لغوي للاسم يدل على اختيار هذا اللفظ للإشارة إلى القيمة المعرفية التي تميز بها الإنسان، فبها يرتفع عن غيره من المخلوقات ويسمو ويرتقي بها إلى الله، وكذلك باعتبار الاشتقاق الثاني من السمة والعلامة فإن القيمة المعرفية هي التي تميز الإنسان عن غيره وتجعله كائناً متميزاً.

فبتعلم الأسماء يدرك الإنسان الأشياء ووظائفها وكيفية التعامل معها، فمصدرية الأسماء الإلهية جعلت منه إنساناً مسلماً لله بفطرته، ومكلفاً في الآن نفسه باستخدام ملكة علم الأسماء في إعمار الأرض مسترشداً بهدي الله، لذلك جاء التكليف الإلهي الأول بالقراءة مقروناً بكونها باسم الله، فهي قراءة مزدوجة لا يستقل فيها وعي الإنسان وامتلاكه للقيمة المعرفية في التعامل مع الأشياء عن الصلة بخالقها، فعلم الأسماء لا يتأتى إلا من الله، فهو المختص بها فله الأسماء الحسنى، ومن ادعى الأسماء من غيره فلا قيمة لتسميته، فملكة المعرفة التي أوتيها الإنسان بتعلم الأسماء تجعله قادراً على معرفة الله أكثر وبالتالي تسبيحه وتقديسه وتنزيهه، وكذلك تلقي رسالة الله عبر رسله مما يجعله قادراً على

منع الإفساد في الأرض وسفك الدماء، وبما أن الله جعل علم الأسماء ملكة في الإنسان فقد أناط به مسؤولية الخلافة في الأرض تكليفاً لا تكويناً، وما دام التكليف منوطاً بالحرية التي متَّع الله بها الإنسان، كانت استجابته للتكليف متفاوتة، فقد يصل الإنسان إلى درجات جهلتها الملائكة، وقد ينحط إلى ما خشيته الملائكة من إفساد وسفك للدماء، لكن الله لم يترك الإنسان للأسماء التي تعلمها إنما ألقى عليه كلمات وابتلاه بها لتكون مفتاح التوبة إلى الله والتعرف عليه.

مفهوم الكلمات

الكلمة في اللغة:

الكلمة مشتقة من الكلم والكلام وفيها ثلاث لغات كِلمة وكَلمة وكُلمة، والكلمة تقع على الحرف الواحد، وعلى لفظة ذات معنى، وتقع على قصيدة أو خطبة بأسرها على سبيل المجاز، وتكلم الرجل تكلماً وتكلاماً وكلمه كلاماً، وتكلمت كلمة وبكلمة، والكَلْم الجرح والجمع كلوم وكلام، وكَلَمه يكلِمه كلماً جرحه وأنا كالم ورجل مكلوم وكليم[1]، فالكَلْم تأثير مدرك بإحدى الحاستين، فالكلام مدرك بحاسة السمع، والكلم مدرك بحاسة البصر[2]، إذاً فالكلمة في اللغة لا تنفصل عن معنى الكلام الذي هو القول، وقد تمتد لتعني الجُرح اعتباراً بما يفيده الكلم من تأثير.

الكلمات في القرآن:

ورد لفظ (كلمات) جمعاً ثلاث عشرة مرة ولفظ (كلمة) بالإفراد ثمانية وعشرين، وبتتبع الآيات وجدنا أن الكلمات استعملت بالنسبة لآدم عليه السلام

---

(1) انظر: الفراهيدي، العين، م.س، ج٥ ص٣٧٨، ابن منظور، لسان العرب، م.س، ج١٢ ص٥٢٢ وما بعدها، الفيروزأبادي، القاموس المحيط، م.س، ص١٤٩١، الزمخشري، أساس البلاغة، م.س، ص٥٥٠، الرازي، مختار الصحاح، م.س، ص٢٤٠.

(2) انظر: الأصفهاني، المفردات، م.س، ص٧٢٤.

مرة واحدة على أنه تلقاها من ربه فتاب عليه[1]، ومرة بالنسبة لإبراهيم عليه السلام على أنه ابتلي بهن فجعله الله للناس إماماً[2]، وبُشر زكريا عليه السلام بيحيى مصدقاً بكلمة من الله[3]، ووصف المسيح عليه السلام بأنه كلمة الله[4].

بخلاف هذه السياقات المتعلقة بالأنبياء فقد جاءت الآيات تتحدث عن "كلمات الله" التي وصفت بأنها لا نفاد ولا مبدل ولا تبديل لها[5]، وبها يُحِقُّ الله الحق ويقطع دابر الْكَافِرِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ، وأن الرسول يؤمن بها، وصدقت بها مريم[6].

---

(١) ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

(٢) ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤].

(٣) آل عمران:٣٩.

(٤) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[آل عمران:٤٥]، ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْه﴾[النساء:١٧١].

(٥)الكهف:١٠٩، لقمان:٢٧، الأنعام:٣٤-١١٥، الكهف:٢٧، يونس:٦٤.

(٦)الأنفال:٧، يونس:٨٢، الشورى:٢٤، الأعراف:١٥٨، التحريم: ١٢.

أما صيغة المفرد "كلمة الله" فقد وصفت بأنها هِيَ الْعُلْيَا[1]، وقد سَبَقَتْ لِعِبَاد الله الْمُرْسَلِينَ[2]، وأنها تَمَّتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فأنقذوا من فرعون[3]، كما تَمَّتْ أن الله سيملأ جَهَنَّمَ من الجاحدين[4]، وقد حقت كلمته على الذين كفروا[5]، ولولا أن كَلِمته قد سَبَقَتْ لَكَانَ العذاب عاجلاً[6]، وأن الاختلاف بين البشر حتمي في الدنيا بكلمة سبقت من الله[7].

مقابل كلمة الله هذه تحدث القرآن عن "كلمة الكفر" التي قالها المنافقون[8]، ووصف الله كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا بأنها السُّفْلَى[9]، ووصف دعوى اتخاذ الله ولداً بأنها كَلِمَة كَبُرَتْ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِ مدعيها[10]، فلا

---

(١) التوبة:٤٠.

(٢) الصافات:١٧١.

(٣) الأعراف:١٣٧.

(٤) هود:١١٩.

(٥) يونس:٣٣-٩٦، غافر:٦.

(٦) طه: ١٢٩

(٧) يونس:١٩، هود:١١٠، فصلت:٤٥، الشورى:١٤-٢١

(٨) التوبة:٧٤

(٩) التوبة:٤٠

(١٠) الكهف:٥

تنفعهم كلمة الندم عند الموت فهي مجرد كَلِمَةٌ تقال[1]، وحينها تكون كَلِمَةُ الْعَذَابِ قد حَقَّتْ عَلَى الْكَافِرِينَ[2].

وقد دعا الرسول ﷺ إلى كلمة سواء بين المسلمين وأَهْلَ الْكِتَابِ مضمونها توحيد الله وعدم الشرك به وعدم اتخاذ البشر بعضهم أرباباً من دون الله[3]، ووصف تبرؤ إبراهيم عليه السلام مما يعبد قومه بِكَلِمَةً بَاقِيَةً جَعَلَهَا فِي عَقِبِهِ[4]، وألزم اللهُ رَسُوله والْمُؤْمِنِينَ كَلِمَةَ التَّقْوَى[5]، وقارن القرآن بين الكَلِمَةً الطَّيِّبَةً والكلمة الخبيثة وآثار كل[6].

هذا مجمل ما ورد في القرآن من سياقات تتعلق بالكلمة أو الكلمات، وسنستعين على فهم هذه السياقات بما ورد في التفاسير حولها.

- كلمات آدم عليه السلام:

اتجهت معظم أقوال المفسرين إلى تفسير الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام

---

(1) المؤمنون:١٠٠

(2) الزمر:١٩-٧١

(3) آل عمران:٦٤

(4) الزخرف:٢٨

(5) الفتح:٢٦

(6) إبراهيم:٢٤-٢٦

على أنها صيغة من الدعاء توجه به إلى الله، فهي كلمات لُقّنها آدم عليه السلام من قبل الله ليقولها طالباً المغفرة، أو أنها كلمات إعلام من الله بأنه عفا عنه، وقد اختلفوا في الصيغة تلك، ولم يرد أي منها بنص على أنها هي ما تلقاه آدم، وذكروا قولاً أن المراد بالكلمات البكاء والحياء... كما ذكرت أقوال أخرى[1].

وقد ذكر الأصفهاني أقوالاً لم أجدها في المراجع السابقة وهي: أنها قبول آدم الأمانة المعروضة على السماوات والأرض، وقيل هي حروف التهجي وما تركب منها من الأسماء التي كان قد علمها، وما أنتج منها من العلوم الحقيقية والأعمال الفاضلة، وما يؤول إليه ذلك من الإيمان فالتوبة، وقيل هي الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام وأنها خصال مذكورة في سور التوبة والمؤمنين والمعارج وأنها تخص العلماء والحكماء والكبراء وقد جمع الأصفهاني بين القولين الأخيرين باعتبار أن الأول نظر إلى المبدأ والثاني نظر إلى الغاية[2].

- كلمات إبراهيم عليه السلام:

عُبِّر بالكلمات عن الوظائف التي كلفها إبراهيم عليه السلام ولما كان

---

(1) انظر أقوال المفسرين في: الطبري، التفسير، م.س، ج١ ص٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥، القرطبي، التفسير، م.س، ج١ ص٣٢٤، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص٦٩-٧٠، أبو السعود، التفسير، م.س، ج١ ص٩٢، ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج١ ص٤٣٧.

(2) انظر: الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، م.س، ص ٢١٦-٢١٧.

تكليفها بالكلام سميت به، والكلمات قد تطلق على المعاني، واختلف المفسرون في المراد بالكلمات على أقوال، فقيل هي:شرائع الإسلام، أو الأمر والنهي، أو أمره بذبح ابنه، أو أداؤه الرسالة، أو مناسك الحج خاصة، أو ابتلاء الله له بالطهارة وخصال الفطرة وأصول الحنيفية، أو هي خصال محمودة ذكرت في سور مختلفة وهي نفسها التي تلقاها آدم عليه السلام، أو الخلال الست الكوكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان، أو أنها كل مسألة في القرآن مثل قوله ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ (إبراهيم:٣٥)، وقيل ابتلاء الله له بفراق قومه، وصبره على قذفهم إياه في النار، وهي أقوال ليست بمتناقضة لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم عليه السلام، وغير جائز لأحد – كما قال الطبري – ادعاء شيء من ذلك بعينه إلا بحجة يجب التسليم بها[1]، فالأقوال جميعاً تؤول إلى تفسير الكلمات بأنها ما ابتلى الله به إبراهيم عليه السلام، فلها معنى خاص غير المعنى اللغوي، وما يجمع المعنى الخاص والمعنى اللغوي كونها تكاليف تبلغ عبر كلمات معينة.

---

(١)انظر:الطبري، التفسير، م.س، ج١ ص٥٢٤وما بعدها، القرطبي، التفسير، م.س، ج٢ ص٩٧–٩٨، البيضاوي، التفسير، م.س، ج١ ص٣٩٥–٣٩٦، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص١٣٩–١٤٠، ابن كثير،التفسير، م.س، ج١ ص١٦٦–١٦٧، الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، م.س، ص٢٤٤، ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج١ ص٧٠٣.

- عيسى عليه السلام كلمة الله :

ورد في القرآن كون يحيى عليه السلام مصدقاً بكلمة من الله (آل عمران: ٣٩)، وقد فسرت الكلمة هنا بأنها عيسى بن مريم عليه السلام وهو رأي معظم المفسرين واستبعد رأي من قال أن المقصود بالكلمة كتاب من الله[١].

واختلف في سبب تسميته، فقيل:

لأن ابتداء أمره كان كلمة من الله (كن) من دون توسط سبب عادي، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء مجازاً إذا كان صادراً عنه[٢].

أو أنه لما بشر به في الكتب القديمة أطلق عليه الاسم[٣].

أو لأنه يهتدى به كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى[٤].

---

(١)انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٣ ص٢٥٢-٢٥٣، القرطبي، التفسير، م.س، ج٤ ص٧٦، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٣ ص١٤٧.

(٢)انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٣ ص٢٦٩، القرطبي، التفسير، م.س، ج٤ ص٧٦، ج٦ ص٢٢، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص٣٨٩، ابن تيمية، دقائق التفسير، م.س، ج١ ص٣٢٤، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، م.س، ج١٧ ص٢٧٦، الواحدي، التفسير، م.س، ج١ ص٢١٠، الجصاص، أحكام القرآن، م.س، ج٢ ص٢٩٥، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٣ ص١٤٧-١٦٠، ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج٣ ص٢٤٥، ج٦ ص٥٢.

(٣)انظر: القرطبي ، التفسير، م.س، ج٦ ص٢٢، الجصاص، أحكام القرآن، م.س، ج٢ ص٢٩٥ ، الألوسي، روح المعاني، ج٣ ص١٦٠.

(٤)انظر: القرطبي، التفسير، م.س، ج٤ ص٧٦، الجصاص، أحكام القرآن، م.س، ج٢ ص٢٩٥،

أو أن الكلمة هي اسم لعيسى سماه الله بها كما سمى سائر خلقه بما شاء من الأسماء[1].

هذا وثمة تفسير آخر للكلمة الواردة في آية تبشير مريم بالمسيح (آل عمران:٤٥) وهو أن المقصود بكلمة منه يعني برسالة من الله وخبر من عنده وهو من قول القائل ألقى فلان إلي كلمة سرني بها بمعنى أخبرني خبراً فرحت به، يعني بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها، وقيل الكلمة هاهنا بمعنى الآية[2].

وقد لوحظ في علاقة عيسى ﷺ بالكلمة تدرجاً نسقياً بدءاً من كونه مخلوقاً لله فهو مفردة من مفردات الخلق فسمي بكلمة قبل خلقه، وعند تخلقه في بطن مريم، وبعد إيجاده، ثم كانت معجزته الكلام في المهد، وكان نذر أمه الصوم عن الكلام (مريم:٣٦)، وتتصل الكلمة بأمه فتصدق بكلمات الله، وبذلك تكون صلة عيسى ﷺ بالكلمات شاملة تكويناً وتكليفاً[3].

ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص٣٨٩، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٣ ص١٦٠.

(١) انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٣ ص٢٦٩، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص٣٨٩.

(٢) وقد رجح الطبري الرأي الأول واتجه معظم المفسرين إلى تفسير الكلمة هنا بأنها اسم المسيح، انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٣ ص٢٦٩، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص٣٨٩، القرطبي، التفسير، م.س، ج٦ ص٢٢، الواحدي، التفسير، م.س، ج١ ص٢١٠.

(٣) انظر: حسن، الكلمة في القرآن، م.س، ص:٢٤٨ وما بعدها.

- الكلمات الأخرى :

تعددت المعاني المذكورة في تفسير الآيات الأخرى غير السياقات الثلاثة التي ذكرناها، كما تشابهت التفسيرات بين الكلمة والكلمات في مختلف السياقات، وقد تتبعتها فوجدتها تتمحور حول المعاني التالية[1]:

- كلمات الله آياته القرآنية، فالكلمات هي القرآن، أو الكلام القديم، أو وحي الله، أو العبارات والدلالات التي تدل على مفهومات معاني كلامه سبحانه.
- كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن.- مواعيد الله، وعده ووعيده وثوابه وعقابه.
- مواعظ الله.

---

(1)انظر الأقوال المذكورة في: الطبري، التفسير، م.س، ج١٦ ص٣٩، القرطبي، التفسير، م.س، ج٧ ص٧١-٣٠٢، ج٨ ص٣٤٠، ج١١ ص٦٩، ج١٤ ص٧٦، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج٣ ص٣١-١١١، ج٤ ص٣٠، نزهة الأعين النواظر، تحقيق: عبد الكريم الراضي، (بيروت:مؤسسة الرسالة، ط:٢، ١٩٨٥)، ص:٢٤٤-٢٤٥، البغوي، التفسير، م.س، ج٢ ص٢٠٦، النحاس، أبو جعفر، معاني القرآن، تحقيق:محمد علي الصابوني، (مكة المكرمة:جامعة أم القرى، ط:١، ١٤٠٩هـ) ج٤ ص٣٠٢، ج٥ ص٢٩١، الواحدي، التفسير، م.س، ج١ ص٣٧٢، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٥ ص٢٠٨، ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج٧ ص٢٠٢، ج٨ ص١٩، ج٩ ص١٤١، ج١١ ص٢٢١، ٢٥٧-٢٨٧، ج١٢ ص١٧١.

- عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته.
- العلم وحقائق الأشياء.
- حكم الله وأقضيته، أو إرادته وسنته في خلقه.
- دين الله أو التوحيد.
- كلمة التقوى كلمة الشهادة أو البسملة.

هذه المعاني التي نقلناها إنما تفسر الكلمة أو الكلمات بحسب ما تدل عليه الآية في سياقها بغض النظر عن كون اللفظ يدل عليه أو لا يدل، فهو تفسير سياقي لا صلة له بالمفردة، كتفسيرها بقضاء الله وسنته، لذا فإن هذه التفاسير لا تقدم إضافة في تحديد دلالة المفردة، وقد لوحظ تشابه التفسير بين مختلف الآيات دون ربط بينها إلا فيما ندر[1].

ولعل ابن تيمية كان أبرز من ربط سياقات لفظ الكلمة أو الكلمات ببعضها ونظر إليها نظرة شمولية، فصنفها إلى نوعين: النوع الأول:

---

(1)-حتى الدراسات المعاصرة وقعت في نفس الإشكال، رغم وعيها بضيق المعنى المعجمي عن استيعاب مدلولات الكلمة في القرآن، إذ صنفت مواضيع الآيات التي وردت فيها لفظة الكلمة أو الكلمات، مع تعميمها أحياناً إلى مفردة الكلام دون ضابط منهجي، انظر: خطاب الكلمة في القرآن/قراءة في نظام دلالاتها العامة ودلالاتها السننية لـ سمير سليمان، (طهران:معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي ١٩٨٩)، انظر بالخصوص ص:٢٤-٢٥، والكلمة في القرآن: مقاربات في المجال الدلالي والوظيفي، لـ غالب حسن، م.س، انظر بالخصوص ص:٢٢٥.

الكلمات الكونية القدرية، وهي من متعلقات الأمر الإلهي المشار إليه بقول سبحانه ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ (يس:٨٣)، والكون كله يدخل تحت هذه الكلمات، ومنها الكلمات التي صدقت بها مريم وغيرها، ويتم كشفها للعبد بالعلم بالحوادث الكونية. والنوع الثاني: الكلمات الدينية الشرعية وهى القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهى أمره ونهيه وخبره، ومن ذلك كلمات إبراهيم ﷺ، وحظ العبد منها العلم بها والعمل والأمر بما أمر الله به وكشفها للعبد يتم بالعلم بالمأمورات الشرعية[1].

وقد ربط ابن تيمية الكلمة والكلمات بلفظة الأمر واعتبر أن كلام الله يجيء تارة بلفظ الأمر وتثبت له الوحدة الخالقية التي لا كثرة فيها ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ (القمر:٥٠)، وتارة يجيء بلفظ الكلمات وتثبت لها الكثرة البالغة التي لا وحدة فيها ولا نهاية لها، فله تعالى إذاً أمر واحد وكلمات كثيرة، وأمره قديم وكلماته أزلية والكلمات مظاهر الأمر، وكل الكون قائم بكلمات الله محفوظ بأمر[2].

---

(١)انظر: ابن تيمية ، مجموع الفتاوى، م.س، ج١١ ص٣٢٢، ابن كثير، التفسير، م.س، ج١ ص١٦٦.

(٢)انظر: ابن تيمية، درء التعارض، م.س، ج٢ ص٣١٩–٣٢٠ .

دلالة الكلمات في القرآن:

لقد كانت فرضيتنا في تتبع مختلف السياقات لأي مفردة قرآنية هو وجود صلة بينها تقود إلى معرفة المعنى المركزي للمفردة الذي قد يستعار لمعان أخرى، وقد لاحظنا الربط بينها بالخصوص عند الأصفهاني وابن تيمية، فاعتبر الأول الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام نفسها التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام، بينما عممها الثاني لجميع السياقات القرآنية لتتوزع بين كلمات تكوينية وشرعية والنوعان يرجعان لمعنى واحد هو التجلي الإلهي للبشر.

هذه المقاربة التيمية تساعدنا في استكناه معنى يربط بين مختلف السياقات، فثمة عنصر مشترك بينها هو البعد الإلهي للكلمات فالآيات تتحدث عن كلمة الله أو كلماته أو كلمة منه أو كلمات يتلقاها الإنسان أو يبتلى بها، وسواء تلقاها أو ابتلي بها فهي تحدد طبيعة علاقة الإنسان بالله، فبالموقف منها تتم التوبة، وبإتمامهن يتأهل الإنسان لإمامة الناس، وحسبها يسير التاريخ وتتحدد العلاقة بين الناس فلا سلطة لأي منهم فيما هو موضوع اختلاف بينهم إذ كلمة الله سبقت بتأجيل حسمه.

هذه المعطيات القرآنية تحدد طرفين لتأطير معنى الكلمة أو الكلمات هما الله والإنسان، فالله هو مصدر الكلمات ومكونها والإنسان هو المباشر لها ومتلقيها، وهي تأتي من الله على صورتين تكوينية تتمثل

بالكون والأشياء، وتكليفية تتمثل بالنصوص المتضمنة للتعاليم الإلهية، وعلاقة الإنسان بنوعي الكلمات هي القراءة والتأمل والتدبر والعبور بها إلى مراد الله من تكوينها، وهو معنى تحمل الإنسان للأمانة الذي أشار إليه الأصفهاني[1] بأنه معنى الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام ليعبر بها إلى الخصال التي طلب من المؤمن التحلي بها في القرآن والمنثورة في مختلف السور، فتكون علاقة الإنسان بالكلمات هي استخدامها من البداية/تحمل الأمانة، للوصول إلى الغاية/خصال الفضيلة التي طلب من المؤمن السعي إليها.

لكن ما العلاقة بين المعنى اللغوي للكلمة وبين استخدامها القرآني، إن الدلالة اللغوية لاشتقاقات الكلمة تفيد معنى الأثر الواضح والدال، سواء بمعناه الحسي أو المعنوي، والكلمات بمعنييها التكويني والتشريعي (الكون والنص) كلاهما قابلان للقراءة والمعاينة والفهم والاعتبار، فالكون المخلوق أثر بارز قد أُمر الإنسان بتدبره والنظر فيه، ومن ذلك عيسى عليه السلام خلق على غير العادة فوصف بالكلمة ليتم تدبر خالقية الله له والعدول عن مسلك السمو به إلى مرتبة الإله، وكذلك كلمات الله الأخرى التي وصفها الله بأنها لا تنفد ولو نفدت طاقة الإنسان في قراءتها وملاحظة قوانينها وسننها، وقد أشار القرآن هنا إشارة دقيقة إلى معنى

---

[1] انظر: الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، م.س، ص ٢١٦-٢١٧.

رديف للأمر بالقراءة وهو الكتابة عن الكلمات، وهي دعوة غير مباشرة للتعرف على الكون واكتشاف قوانينه وتسجيلها، فشبَّه القرآن عظمة كلمات الله وعجز الإنسان عن الإحاطة بها، بمن اتخذ أشجار الأرض أقلاماً وماء بحاره حبراً ليسجل ما يلاحظه ويقرأه من كلمات الله التكوينية والشرعية فلن يحيط بها ولو بقيت أشجار الأرض وبحارها تتجدد[1]، وبما أن الإنسان هو من يباشر القراءة والكتابة فطبيعة التشبيه القرآني بمثابة إشارة للإنسان ليقرأ الكون ويسجل ما يكتشفه فيه، وفي ذلك تكميل للأمر الأول بالقراءة، فعلاقة الإنسان بالكلمات علاقة مفتوحة بدءاً من آدم عليه السلام إلى الرسول الخاتم ﷺ، علاقة تصديق وإيمان بالمطلق، وسعي لاكتشافه والتعرف عليه والسمو إليه، لكن الإنسان الجاحد لإلهية الكلمات والساعي للتأله وادعاء الإحاطة بالوجود يدعي من نفسه كلمات ومعان يقابل بها كلمات الله، من هنا قابل القرآن بين كلمة الله العليا والسابقة والمسيطرة، وبين كلمة الكفر السفلى.

العلاقة بين الأسماء والكلمات:

لقد علَّم الله آدم عليه السلام الأسماء وهو تعليم يعم جنس الإنسان كما يدل

---

(1)﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:109]، ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:27] .

عليه سياق القص عنه، وأمر الله الإنسان على لسان الرسول الخاتم ﷺ في أول تكليف إلهي في نص الرسالة الخاتمة بالقراءة باسم الله، كما تلقى آدم عليه السلام كلمات من الله وابتلي بهن إبراهيم عليه السلام وصدقها المرسلون والرسول الخاتم بالأخص، وأمر الإنسان بالاعتبار بها وتدبرها وقراءتها، وبالتالي فالكلمات بنوعيها تقرأ، وقد أمر الله أن تكون القراءة باسم الله مما يعني أن علم الأسماء هو مفتاح القراءة للكلمات التكوينية والشرعية، وإذا كانت الأسماء رمزاً إلى ملكة المعرفة والعلم لدى الإنسان والكلمات التكوينية والتشريعية هي تجليات الله للإنسان، فإن طريق الإنسان إلى تسبيح الله وعصمة نفسه من الإفساد وسفك الدماء هو التعرف على الكون وعلى تعاليم الله بواسطة العلم الذي أوتيه الإنسان[1]، وهو فعل القراءتين للكلمات التكوينية والشرعية، وثنائية الكلمات وكون قراءتها هي الطريق لأداء مهمة الاستخلاف تدل على تطابق التعاليم الإلهية مع فطرة الإنسان وتطابق السنن الإلهية التكوينية مع السنن التشريعية.

في هذه المقابلة بين طبيعة الأسماء وطبيعة الكلمات كما أوضحناها نلحظ تشابهاً فيما بينها من حيث اشتراكها في ثنائية إحالتها وتعلقاتها، أعني ارتباطها بالله من جهة وبالإنسان من جهة أخرى، ففي الوقت الذي

---

(١) من هنا كان العلماء هم الأشد خشية لله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر:٢٨) وذلك من خلال تعلمهم وإدراكهم علاقة العلم بالله (القراءة باسم الله) وفهم كلماته التكوينية والتشريعية.

توصف فيه بأنها إلهية ومن الله هي مجال إمكانية الإدراك من قبل الإنسان وقابلة للفهم الإنساني في آن، وكما هناك أسماء الله وكلماته يقابلها الأسماء الباطلة وكلمة الكفر المدعاة.

هذا التشابه في طبيعة الأسماء والكلمات وتعاليهما عن أن يحيط بهما المعنى اللغوي، والعجز التفسيري عن إيجاد تعريف مفهومي أو اصطلاحي لهما، يسمح لنا بافتراض وجود نظرية في اللغة القرآنية نصطلح على تسميتها (المفردات الرمزية في الخطاب القرآني)، ونعني بها تلك المفردات التي لا تحيط بها المعاني اللغوية المعلومة للمفردة ولا تساعد السياقات على ضبط معنى معين لها مع اشتراكها في إشارات لمعنى لا يحيط به الإنسان، وغالباً ما يكون استعمال هذه المفردات في القرآن غير مألوف في نسق اللغة العادي، فتأخذ المفردة طابعاً خاصاً في القرآن ينبع مما أشرنا إليه من ثنائية تعلقها بالإلهي والإنساني، فهي لغة وسيطة بين عالمي الغيب والشهادة، بين الله والإنسان، فهي رمزية تحيل إلى القيم التي تنظم هذه العلاقة وأطرافها، والبعد الإلهي فيها يجعل اللغة الإنسانية عاجزة عن الإحاطة بمعانيها لذلك سميناها رمزية[1]، وقد انتقى القرآن من لغة

---

(١) لا يقوم بمعنى الرمزية الذي أشرنا إليه تعبير المجاز الذي له مقتضياته المختلفة، فمعنى الرمزية الذي نقصده يختص بالمفردات ذات الصلة بعالمي الغيب والشهادة ولا يمكن تفسيرها بمعنى لغوي من عالم الحس وتطبيقها على عالم الغيب غير المدرك، فلم يبق إلا التفسير باعتبار ما يمكن أن يرمز إليه استعمال المفردة في مختلف

الإنسان ما هو الأنسب للرمز إلى المعنى المقصود تجليته للإنسان، فلا يمكن تفسيرها في سياقها القرآني بالمعنى اللغوي، إنما من خلال استكناه ما ترمز إليه بعد استقراء استخداماتها القرآنية.

هذه الفرضية التي استوحيناها من خلال دراستنا لمفردتي الأسماء والكلمات تحتاج إلى دراسات تعمقها من خلال تتبع لمفردات القرآن ودراستها، ولا تسمح هذه الدراسة بأكثر من الإشارة إليها وفتح أفق قد يضيف في منهجية تدبر القرآن ما يجيب على أسئلة لا تزال معلقة، كما أن مفردتي الأسماء والكلمات تحتاجان إلى تعميق وتوسع يربطهما بمفردات أخرى كالاشتقاقات الأخرى للكلمة أعني: الكلام.

ولئن قادت الأسماء إلى دراسة الكلمات، فإن كلمات الله عندما تجتمع تشكل الكتاب، المفهوم الذي لا يقل أهمية وإثارة في القرآن والذي سنتناوله في المبحث التالي.

سياقاتها النصية واستخداماتها اللغوية، كما أن معنى الرمزية هذا يختلف تماماً عن التفسير الإشاري، إذ اللغة والحقيقة اللغوية للمفردة واستعمالاتها هي المفتاح لمعرفة المعنى، ومن جهة أخرى فإن التفسير الرمزي هذا يقوم على مفهوم المفردة الكلي في مختلف السياقات القرآنية فقد تحمل بعض السياقات معنى لغوياً أو معنى شرعياً.

مفهوم الكتاب

لاحظنا في دراسة مفهومي الأسماء والكلمات أن التشابه في طبيعتهما وتعاليهما عن أن يحيط بهما المعنى اللغوي، والعجز التفسيري عن إيجاد تعريف مفهومي أو اصطلاحي لهما يسمح بافتراض وجود نظرية في اللغة القرآنية اصطلحنا على تسميتها (المفردات الرمزية في الخطاب القرآني)، ونعني بها تلك المفردات التي لا تحيط بها المعاني اللغوية المعلومة للمفردة ولا تساعد السياقات على ضبط معنى معين لها مع اشتراكها في إشارات لمعنى لا يحيط به الإنسان، وغالباً ما يكون استعمال هذه المفردات في القرآن غير مألوف في نسق اللغة العادي، فتأخذ المفردة طابعاً خاصاً في القرآن ينبع من ثنائية تعلقها بالإلهي والإنساني، فهي لغة وسيطة بين عالمي الغيب والشهادة، بين الله والإنسان، فهي رمزية تحيل إلى القيم التي تنظم هذه العلاقة وأطرافها، فلا يمكن تفسيرها في سياقها القرآني بالمعنى اللغوي فقط، إنما من خلال استكناه ما ترمز إليه بعد استقراء استخداماتها القرآنية.

هذه الفرضية التي استوحيناها من خلال دراستنا لمفردتي الأسماء والكلمات تؤكدها مفردات أخرى، فلئن قادت الأسماء إلى دراسة الكلمات، فإن كلمات الله عندما تجتمع تشكل "الكتاب"، هذا المفهوم الذي لا يقل أهمية وإثارة في القرآن والذي سنتناوله في هذا الجزء المتمم لدراستنا.

وسنعتمد في دراسته نفس الطريقة السابقة في بحث الأسماء والكلمات وذلك باستقراء المعاني اللغوية للكتاب واستخلاص المعنى المركزي الذي يشكل الخيط الرابط بينها، ثم تتبع ورود المفردة في القرآن وتصنيف سياقاتها وتحليلها وربط ذلك بالمعنى المركزي اللغوي، وملاحظة تنزلات تلك المفردة في السياقات القرآنية والروابط بينها، وما قد يشير إليه ذلك من معنى مركزي قرآني لمفردة الكتاب في بنية النص القرآني.

الكتاب في اللغة :

الكتاب مصدر، يقال كتب الكتاب يكتبه كِتبة وكتاباً وكتابةً وكَتْباً، وكتبه خطه، ثم سمي به المكتوب، فالكتاب اسم لما كتب مجموعاً، والصحيفة والدواة، والأصل في الكتابة النظم بالخط لكن يستعار كل واحد للآخر، ولهذا سمي كلام الله – وإن لم يُكتب -كتاباً، والكاتب عند العرب العالم.

والكتاب الفرض والحكم والقدر والعزم، ووجه ذلك أن الشيء يراد ثم يقال ثم يكتب، فالإرادة مبدأ والكتابة منتهى، ثم يعبر عن المراد الذي هو مبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة التي هي المنتهى، ومن المجاز كُتب عليه كذا:قضي عليه، وهذا كتاب الله:قدره.

والكُتبة بالضم السير يخرز به والجمع كتب، وأكتبت القربة شددتها،

والكَتيبة ما جمع فلم ينتشر، والكَتيبة القطعة العظيمة من الجيش والجمع الكتائب، وكتَّب الكتائب هيأها كتيبة كتيبة، وتكتبت الخيل أي تجمعت، وتكتَّب الرجل إذا تحزم وجمع عليه ثيابه، وتكتبوا تجمعوا.

فكل ما ذكر في الكتاب من معان قريب بعضه من بعض وهو الجمع بين شيئين أو أكثر[1]. فأصل الكتابة الجمع وسميت الكتابة لجمعها الحروف، فهي خطوط موضوعة مجتمعة تدل على المعنى المقصود، فاشتق الكتاب لذلك، ويسمى المكتوب كتاباً مجازاً[2].

فالكتاب بناء على ما ذكر هو المجموع من الحروف والكلمات الدالة على مقصود كاتبها، ويستلزم ذلك معنى لازماً له وهو الخط الذي تجمع من خلاله الحروف والكلمات، ولمعنى الجمع والخط المستخدم في التعبير عن المعنى استعير لفظ الكتاب للتعبير عن المتحصل من الكتابة مادياً (الصحف التي خُط عليها)، أو معنوياً (المعنى الذي تفيده الكلمات

---

(1)انظر: ابن منظور، لسان العرب، م.س، ج1 ص 698 وما بعدها، الفيروزأبادي، القاموس المحيط، م.س، ج1 ص165، الزمخشري، أساس البلاغة، م.س، ص:535، الرازي، مختار الصحاح، م.س، ص:234، الأصفهاني، المفردات، م.س، ص699، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، تحقيق:طاهر الزاوي، (بيروت:المكتبة العلمية1979)، ج4 ص147.

(2)انظر: الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار المعرفة1990) ج1 ص:276- 277 .

المجتمعة سواء كانت مخطوطة أم لم تكن)، فإذا أطلق لفظ الكتاب تبادر إلى الذهن أحد المعنيين، الكتاب ببعده المعنوي وهو لازم للكتاب المادي لأنه يتحصل منه، أو يقصد بالكتاب عند إطلاقه الصحف المادية التي خطت عليها الكلمات بغض النظر عما تفيده من معنى.

ونظراً للوظائف التي تؤديها الكتابة والكتاب، فقد أطلق الكتاب مجازاً على معان متحصلة منها كالقضاء والفرض..، وقد تعدى المعنى المجازي للكتاب إلى صيغة الفعل واشتقاقاتها فأصبحت تعبر عن معنى الجمع بشكل عام أو الشيء المجموع كما ورد في الأمثلة التي نقلناها.

هذه المعاني اللغوية للكتاب استعيرت لمعنى ديني خاص، فأطلق الكتاب على أمور ذات صلة بين الله والخلق، فعبر به عما تلقاه الأنبياء من الله، وعن علم الله وحكمه وفرائضه وقدره وغيرها من المعاني التي لها حضورها في مختلف السياقات الدينية عبر التاريخ، لكنا سنتناول مفردة الكتاب في سياقها القرآني حصراً.

الكتاب في القرآن الكريم :

إن إطلالة عامة على تكرار جذر كتب وتواتره في القرآن، وما ذكرته كتب الوجوه والنظائر من معان للكتاب في القرآن[1] تجعل الناظر فيها

---

(١)ذكروا من معاني الكتاب ما يزيد على عشر معان : اللوح المحفوظ، أعمال بني آدم،

يشعر للوهلة الأولى أن لا رابط بينها وأن من العبث البحث عن علاقة بينها تقود إلى معنى مشترك، فقد ورد لفظ الكتاب=٢٦١ مرة، من بين مفردات جذر كتب في القرآن=٣١٩ مرة، وقد توزع ورود لفظ الكتاب في القرآن على ٥٨ سورة، ١٣٨ مرة ضمن ١٢٩ آية في ٤٣ سورة مكية، فيما وردت ١٢٣ مرة ضمن ١٠٨ آية في ١٥ سورة مدنية.

وسنصنف هذه الآيات حسب ما يفيده سياقها ضمن ستة محاور أساسية:

١. الاستعمال اللغوي لمفردة الكتاب في القرآن:

وردت استعمالات للكتاب بمعناه اللغوي حقيقة أو مجازاً، فذكر كتاب سليمان إلى ملكة سبأ[1]، والكتاب بمعنى المصدر ويعني مكاتبة العبد[2]، وشبَّه القرآن مصير السماء ضمن تحولات الكون التي ستؤول إليها بالكتاب الذي يتم طيه[3]، ومن المعاني المجازية للكتاب استعماله

الأجل، الوقت، الرزق، العدة، الفرض، الحساب، العلم، القرآن، التوراة، الإنجيل. (انظر: الدامغاني، الحسين بن محمد، إصلاح الوجوه والنظائر، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، (بيروت: دار العلم للملايين ط:١٩٧٠،١)، ص٤٠٠-٤٠١، ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، م.س، ص٥٢٦).

(١) النمل:٢٨-٢٩

(٢) النور:٣٣

(٣) ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا

بمعنى الزمن المحدد مسبقاً، فاستعمل في مدة العدة وأجل الموت[1]، كما استعمل الكتاب بمعنى الفرض والواجب[2]، وهو معنى مجازي لاستعمال الكتاب واستعمال صيغة الفعل في هذا المعنى أكثر، وهذا ما بينه المفسرون في الحديث عن تلك الآيات، وربما فسر البعض بعضها بمعنى اصطلاحي مستعيناً بدلالة لغوية أو نحوية كتقدير مضاف أو غيره[3].

إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء:١٠٤

(١) ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ البقرة:٢٣٥ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ آل عمران:١٤٥ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ الحجر:٤

(٢) ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء ١٠٣)

(٣) ففي قوله ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ فسروه بالحد والقدر أو تقدير (فرض الكتاب أجله) فالكتاب على هذا التأويل بمعنى القرآن (انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٢ ص٥٢٧، البيضاوي، التفسير، م.س، ج١ ص٥٣٢، القرطبي، التفسير، م.س، ج٣ ص١٩٢-١٩٣، الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، م.س، ص٤٨٩) ، وفي قوله تعالى ﴿كتاب الله عليكم﴾ فسروه بمعنى كتب الله تحريم ما حرم من ذلك وتحليل ما حلل من ذلك عليكم كتاباً وفرضه فرضاً، وقيل منصوب على وجه الإغراء بمعنى عليكم كتاب الله ، الزموا كتاب الله ، وقرئ كتب الله بلفظ الفعل الماضي (انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٥ ص٩، أبو السعود، التفسير، م.س، ج٢ ص١٦٤، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج٢ ص٥١، النسفي، أحمد بن محمود، تفسير النسفي (د.ط، د.ت)ج١ ص٢١٥، ج٢ ص١٢٩، الجصاص، أحكام القرآن، م.س، ج٣ ص٨٦، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٢ ص١٧٠، القرطبي، التفسير، م.س، ج٥ ص١٢٣-١٢٤، ابن كثير،

٢.كتاب الله المنزل على الرسل:

يدل لفظ الكتاب في القرآن على ما أنزل على الرسل من تعاليم وأحكام وأخبار، وقد سمى القرآن بعض هذه الكتب وتحدث عنها صراحة وبيَّن خصائصها وصفاتها، وأبرزها القرآن والتوراة والإنجيل، وهناك آيات أخرى تحدثت عن كتاب منزل دون أن تحدد اسمه أو على من أنزل، وذلك حسب التصنيف التالي:

الكتاب بما هو القرآن:

وردت نيف وأربعون آية لفظ الكتاب فيها تدل القرائن الحافة به على أنه هو القرآن المنزل على محمدﷺ يشير اللفظ فيها إلى الكتاب باعتباره منظوراً ومعلوماً من المخاطب وواعياً به، ويدل السياق على أنه القرآن المنزل على الرسول[1]، فقد جاء تعريف القرآن بأنه الكتاب، وأشير إليه

التفسير، م.س، ج١ ص٤٧٥)، وحول قوله﴿كتابا مؤجلا﴾ انظر: الطبري، التفسير،م.س، ج٤ ص١١٥، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص٤٧٠، وقوله: ﴿ كتابا موقوتا﴾ انظر: البيضاوي، التفسير، م.س، ج٢ ص٢٤٨، الطبري، التفسير،م.س، ج٥ ص٢٦١-٢٦٢، وقوله: ﴿ كطي السجل للكتب ﴾ السجل في هذا الموضع الصحيفة، يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب يعني المكتوب أوكطي السجل على ما فيه من الكتاب (انظر: الطبري، التفسير،م.س، ج١٧ ص٩٩-١٠٠، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج٣ ص٤٣٢) .

(١) إن استعراض الآيات والسياقات التي سنثبتها في هذه الفقرة كاف للحكم على

بأسماء الإشارة وأل العهد، أو في سياق الحديث عن الرسول أو المخاطبين من أتباعه، وكانت بعض الآيات صريحة في تعريف القرآن بأنه الكتاب﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:٣)، وقد استخدمت ثلاث صيغ من أساليب الإشارة تدرجت حسب النزول من الحديث عن آيات الكتاب ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾[1] في السور المكية إلى الإشارة إلى الكتاب بكليته ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ (الأنعام:٩٢-١٥٥)، ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ (البقرة:٢)، وقد وصف الكتاب في هذه الآيات بأنه لا ريب فيه وأنه هدى ومنزل من الله ومبارك ومصدق الذي بين يديه، وتكرر وصفه بأنه حكيم ومبين، وقد جاءت معظم هذه الأوصاف في الآيات المفتتحة بها السور وخصوصاً بعد الأحرف المقطعة[2]، وقد وردت آيتان

دعوى محمد شحرور التفريق بين القرآن والكتاب واعتباره القرآن جزءاً من الكتاب وأن المصحف يحتوي على آيات القرآن وآيات الكتاب، وأن آيات القرآن هي آيات النبوة وتتعلق بالحق والباطل وأن آيات الكتاب هي آيات الرسالة وتتعلق بالحلال والحرام، فهو يؤسس مفهوماً للقرآن والكتاب بانتقاء للآيات ودون استقراء لسياقات ورود المفاهيم فيها، فضلاً عن الفهم الخاطئ للقواعد اللغوية التي أسس عليها تفريقه، ينظر: شحرور، محمد، الكتاب والقرآن /قراءة معاصرة، (دمشق:مكتبة الأهالي، ط:٥، ١٩٩٢).

[1] يونس:١، يوسف:١، الرعد:١، الحجر:١، الشعراء:٢، النمل:١، القصص:٢، لقمان:٢.

[2] ورود لفظ الكتاب مقترناً بأوائل سور:البقرة، يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، الشعراء، النمل، القصص، لقمان، السجدة، الزمر، غافر، فصلت، الزخرف،

صريحتان في التماهي بين القرآن والكتاب ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ (الحجر:١)، ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (النمل:١)، فالقرآن والكتاب مُبينان وفيهما آيات، كما ورد التعبير عن الكتاب باعتباره معهوداً لدى القارئ ووصف في هذه السياقات بأنه كتاب لا ريب فيه عزيز مبين متشابه، آياته محكمة ومفصلة، وهو تنزيل من رب العالمين العزيز الحكيم العليم الخبير[1].

وجاءت الآيات الأخرى تتحدث عن الكتاب مبينة أوصافه وخصائصه، وهي آيات تتحدث عن صفة ملازمة للكتاب هي كونه منزلاً من قبل الله على الرسول أو إليه[2]، فيما وردت صفة الإلقاء مقترنة بالكتاب في آية واحدة[3]، والوحي في ثلاثة آيات لكن مع اقترانها بمن الكتاب[4]،

الدخان، الجاثية، الأحقاف، الطور، الجمعة.

(١)الزمر:١، الأحقاف:٢، الجاثية:٢، هود:١،السجدة:٢، الزمر:٢٣، غافر:٢، فصلت:٣-٤١، الزخرف:٢، الدخان:٢.

(٢)تكرر مع لفظ الإنزال عبارة ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ آل عمران:٣-٧، النحل:٦٤-٨٩، العنكبوت:٥١، الزمر:٤١، أو﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ النساء:١٣٦، ﴿أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الكهف:١، أو عبارة ﴿إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ النساء:١٠٥-١١٣، المائدة:٤٨، الأعراف:٢، إبراهيم:١، العنكبوت:٤٧، ص:٢٩، الزمر:٢.

(٣) ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القصص:٨٦.

(٤) ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ الكهف:٢٧، العنكبوت:٤٥، فاطر: ٣١.

ووصفت آية أخرى مهمة الرسول بأنها تعليم الكتاب[1]، وبينت آية أخرى رفض اليهود له[2]، فيما سمع الجن بنزوله بعد كتاب موسى فآمنوا به[3]، كما وردت آيات أخرى تتعلق بالقرآن باعتباره كتاب المخاطبين به أنزل إليهم وعليهم[4].

فالكتاب اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق[5]، ولام الكتاب في هذه الآيات للعهد المحيل على القرآن، وهذا ما ذكره مختلف المفسرين في غير مكان[6].

---

(١) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجمعة:٢.

(٢) البقرة:٨٩-١٠١.

(٣) ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الأحقاف:٣٠

(٤)﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾البقرة:٢٣١، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ النساء:١٤٠، ﴿أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ الأنعام:١١٤، الأنبياء:١٠

(٥) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، م.س، ج ١٢ ص١٢٥.

(٦)انظر مثلاً حول الآيات: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ ﴿ما أنزل عليكم من الكتاب﴾ ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ المصادر التالية: الطبري، التفسير، م.س، ج١ ص٥٥٧، ج٢ ص٤٨٣، ج٤ ص١٦٣، ج٥ ص٢٧٥، ج١٤ ص١٦١-١٦٢، ج٢٨ ص٩٤، البيضاوي، التفسير، م.س، ج١ ص٥٢٢، ج٢ ص١١١، ج٢ ص٣٣١، ج٥ ص٣٣٧،

وهذه الآيات يشترك معظمها في تأكيد صفة هي الأكثر اقتراناً بالكتاب وهي كونه منزلاً من الله (٢٥ مرة)، وجاءت مرتان تصف كونه وحياً من الله ومرة كونه ملقى منه إلى الرسول، أما الصفات الأخرى فأكدت مصدريته الإلهية فهو كتاب لا ريب فيه هدى ومبارك ومصدق الذي بين يديه، وتكرر وصفه بأنه حكيم ومبين، عزيز، متشابه آياته محكمة ومفصلة، هذه الصفات تكررت أيضاً في الآيات التي تحدثت عن القرآن بلفظ القرآن.

القرطبي، التفسير، م.س، ج٢ ص١٣٦، ج٥ ص٣٨٢، ابن حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، (الرياض: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، د.ت) ج٣ ص٥٠١، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج١ ص١٦٠، ٢٦٨، ج٢ ص١٩٧، ٣٧٠، ابن كثير، التفسير، م.س، ج١ ص١٨٥، ٤٢٥، ج٢ ص٥٨٣، الواحدي، التفسير، م.س، ج١ ص١٣٢، ٢٨٩، ٣٥٢-٦١٧، أبو السعود، التفسير، م.س، ج١ ص٢٢٨، ج٢ ص١٠٨، ج٢ ص٢٣٦، ج٨ ص٢٤٧، البغوي، التفسير، م.س، ج١ ص١٢٨، النسفي، تفسير النسفي،م.س، ج١ ص:١١٢، ج١ ص١٨٩، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٢ ص١٤٤، ج٥ ص١٤٤، ج٢٨ ص٩٣، ونقل عن مالك بن أنس أن المقصود بتعليم الرسول الكتاب هو الخط بالقلم(انظر: الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج٥ ص٢٢٥)، وفي قوله: ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه﴾ اختلف في معنى الكتاب حسب تفسير (من) فمن اعتبرها للتبيين اعتبر الكتاب هو القرآن، ومن اعتبرها تبعيضية أو ابتدائية فسر الكتاب باللوح المحفوظ أو جنس الكتاب، انظر:الطبري، التفسير، م.س، ج٢٢ ص١٣٣، القرطبي، التفسير، م.س، ج١٤ ص٣٤٥، الشوكاني، فتح القدير، م.س،ج٤ ص٣٤٩، النسفي، التفسير، م.س، ج٣ ص٣٤٣، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٢٢ ص١٩٣-١٩٤.

لفظ القرآن في القرآن:

ورد لفظ القرآن في القرآن ٦٨ مرة، ثمان منها فقط في آيات مدنية[١]، وقد ورود لفظ القرآن مبكراً في أوائل ما نزل من القرآن[٢]، واقترنت بلفظ القرآن صفات عديدة وردت في لفظ الكتاب[٣]، فهو منزل من الله[٤]، وموحى منه[٥] وملقى إلى رسوله[٦] ومؤتى إليه[٧]، كما وصف القُرْآن بأنه حَكِيم مُبِينٌ كَرِيمٌ

---

(١)البقرة:١٨٥، النساء:٨٢، المائدة:١٠١، التوبة:١١١، الرعد:٣١، محمد:٢٤، الحشر:٢١، الإنسان:٢٣.

(٢) ورد لفظ القرآن في ثالث سورة أنزلت (المزمل:٤)، فيما ورد لفظ الكتاب في ثاني سورة أنزلت (القلم)، أما فيما يخص تسمية القرآن بالكتاب فأول مرة وردت في سورة ص التي ترتيبها في النزول ٣٨، وهو رابع ورود للفظ الكتاب في القرآن بعد سور القلم والمدثر وق.

(٣) القرآن عَلَم على الكتاب المشار إليه في الآيات، وثمة اشتراك في المعنى بين لفظ الكتاب والقرآن لغوياً فمادتي كتب وقرأ تدوران على معنى الضم والجمع مطلقاً (انظر: دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، (الكويت: دار القلم، ط:٢، ١٩٧٠) ص١٢-١٣، وانظر: الأصفهاني، المفردات، م.س، ص٦٦٨-٦٦٩.

(٤)البقرة:١٨٥، المائدة:١٠١، يوسف:٢، طه:٢-١١٣، الفرقان:٣٢، الزخرف:٣١، الحشر:٢١، الإنسان:٢٣، الإسراء:٨٢

(٥) الأنعام:١٩، يوسف:٣، الشورى:٧

(٦) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ النمل:٦

(٧) الحجر:٨٧، يونس:١٥

مَجِيد في لوح محفوظ، هُدًى وَشِفَاء، غَيْرَ ذِي عِوَجٍ، ذِي الذِّكْرِ، يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ[1]، ووصف بأنه عربي غير مرة[2]، وقد اقترن القرآن والكتاب معاً في سياق واحد أربع مرات، آيتان منهما تدلان على التماهي بينهما[3]، والآيتان الأخريان تشيران إلى أن القرآن تفصيل للكتاب[4].

هذه المعطيات سنعود إليها لاحقاً بعد استكمال المعطيات القرآنية المتعلقة بالكتاب المنزل، فبعد القرآن نجد الكتاب يقصد به التوراة.

الكتاب بما هو التوراة:

ورد لفظ الكتاب معنياً به التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام وقد دل على ذلك اقترانها بذكره أو ذكر بني إسرائيل، فذكر إيتاؤه الكتاب ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾[5]، واقترن معه أخاه هارون عليه السلام (الصافات:١١٧)،

---

(١) يس:٢-٦٩ ق:١، البروج:٢١، الواقعة:٧٧، فصلت: ٤٤، الزمر :٢٨ ص:١، الإسراء:٩.

(٢) يوسف:٢، طه:١١٣، الشورى:٧، الزمر:٢٨، فصلت:٤٤، الزخرف:٣

(٣)﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ الحجر:١، ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ النمل:١

(٤) ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس:٣٧، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت:٣

(٥)البقرة:٥٣-٨٧، هود:١١٠، المؤمنون:٤٩، الفرقان:٣٥، الإسراء:٢، الأنعام:١٥٤،

ووصف بالإنزال في آية واحدة[1]، وبكونه كتاباً سابقاً للقرآن وقد أضيف إلى موسى عليه السلام ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (هود:١٧، الأحقاف:١٢).

أما الصفات التي اقترنت بالكتاب الذي هو التوراة فقد وصف بأنه كِتَاب مُسْتَبِين وتفصيل لكل شيء وبَصَائِر للنَّاس ونور وإمام ورحمة وهُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ والناس[2].

هذا وقد تحدث القرآن عن الكتاب/ التوراة باعتباره مؤتى لبني إسرائيل (مع الحكمة والنبوة) وتوريثهم إياه[3]، كما وصفت آيات في سورة البقرة موقفهم من الكتاب: فهم يَتْلُونَ الْكِتَابَ، وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ، وهم يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ويؤمنون بِبَعْضِ الْكِتَابِ ويَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، ويَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ[4].

وبخلاف الحديث عن الكتاب التوراة في سياق الحديث عن موسى عليه السلام وبني إسرائيل فقد وردت صيغ أخرى لاستعمال لفظ الكتاب في

القصص:٤٣، السجدة:٢٣، فصلت:٤٥

(١) ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ الأنعام:٩١

(٢) الصافات:١١٧، الأنعام:١٥٤، القصص:٤٣، الأنعام:٩١، هود:١٧، الأحقاف:١٢، الإسراء:٢، السجدة:٢٣

(٣) الجاثية:١٦، غافر:٥٣

(٤) البقرة:٤٤-٧٨-٧٩-٨٥-١١٣-١٧٤

القرآن مقصوداً به التوراة، وذلك في إطار الحديث عن طوائف كانت في عصر النزول (اليهود والنصارى) وكان لها ارتباط وثيق بالكتاب التوراة، فعبر عنهم بالانتساب إلى الكتاب وقد يكون المقصود كلا الفريقين اليهود والنصارى أو أحدهما، لكن معظم السياقات كانت مجملة وغالبها يدل على قصد اليهود، فعبر عنهم بصيغة أهل الكتاب=٣١ أو الذين أوتوا (آتيناهم) الكتاب=٢٨، وإنما اشتمل النصارى مع اليهود في هذين التعبيرين نظراً لأن التوراة هي جزء من كتاب النصارى والإنجيل زائد عليه، وقد أشار القرآن إلى أخذ يحي ﷺ للكتاب، وفسر على أنه التوراة[1]، وكذلك أُوتي عيسى ﷺ الكتاب وهو في المهد واختلف فيه هل هو الإنجيل أو التوراة[2]، كما وصف النصارى بأنهم يتلون الكتاب وكذا اليهود[3].

ولئن لم يفرد قصد الإنجيل بالكتاب صراحة فقد ورد ذكر الإنجيل=١٢ مرة، وورد ذكر التوراة=١٨ مرة، واقترنا معاً في عشرة آيات منها، وقد سجل

---

(١) مريم:١٢، انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج١٦ ص٤٥، القرطبي، التفسير، م.س، ج١١ ص٨٦، ابن كثير، التفسير، م.س، ج٣ ص١١٤.

(٢) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ مريم:٣٠، ورُجح معنى القضاء الإلهي بإيتائه الكتاب، انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج١٦ ص٨٠، القرطبي، التفسير، م.س، ج١١ ص١٠٢-١٠٣، ابن كثير، التفسير، م.س، ج٣ ص١٢١، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٤ ص١٣.

(٣) البقرة:١١٣

الله وعد الجنة للمؤمنين المقاتلين في سبيله ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ وهي المرة الوحيدة التي اقترن فيها ذكر الكتب الثلاثة معاً[1].

أما الكتاب الرابع الذي يضاف إليهم عادة فهو الزبور الذي اقترن بداود باعتباره كتاباً أوتيه ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾(النساء:١٦٣، الإسراء:٥٥).

هذه الكتب التي أنزلها الله هي محور من محاور الإيمان التي يتعلق بها، فقد آمن بها الرسول والمؤمنون وصدقت بها مريم[2]، بينما كذَّب بها المشركون الذين كان لهم تصور خاص للكتاب السماوي أشار إليه القرآن.

٣.الكتاب في تصور المشركين ومعاصري الرسول:

لقد كان لدى مشركي العرب تصور لوجود كتاب إلهي منزل على البشر، وكانوا على علم بكتب أهل الكتاب دون إيمان بها لكنهم كانوا يتخذون من صيغتها الملموسة معياراً يحاجون به الرسول ﷺ لذلك طلب منهم القرآن إن لم يؤمنوا بالكتاب أن يأتوا بأفضل منه[3]، فطلبوا من الرسول أن

---

(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ التوبة:١١١

(٢) البقرة ٢٨٥ التحريم: ١٢

(٣) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا

ينزل عليهم كتاباً يقرأ[1]، ولما كان احتجاجهم بنمط كتب أهل الكتاب للمماطلة، بيَّن القرآن أنه لو كان كما يشتهون لم يكونوا ليؤمنوا[2].

وقد استنكر القرآن عليهم هذه المحاجة إذ هم ليسوا قوم كتاب ولم يكن لهم تاريخ مع الكتب[3]، وحتى الرسول نفسه لم يكن يقرأ كتاباً من قبل أن ينزل عليه القرآن بل لم يكن يدري ما الكتاب أصلاً[4]، ويبدو أن المشركين كانوا يعتذرون لجهلهم بقضايا الغيب بعدم تلقيهم كتاباً وأنهم كانوا يتمنون لو كان لديهم ما أوتي اليهود والنصارى لكانوا أهدى منهم، فجاءهم ما كانوا يتمنون فلم يؤمنوا[5]، وهم رغم اعترافهم

أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ()قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ القصص: ٤٨-٤٩

(١) ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾الإسراء:٩٣

(٢) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الأنعام:٧

(٣) ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ سبأ:٤٤

(٤) ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ العنكبوت:٤٨ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ الشورى: ٥٢

(٥) ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ()أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ الأنعام:١٥٦-١٥٧ (انظر: ابن حيان، البحر المحيط:٢٧٥/٤) .

هذا كانوا يبتدعون في الدين وينسبون إلى الغيب أموراً سألهم القرآن عن مصدر علمهم بها وأن يأتوا بكتاب[1].

وبالتالي فتصور المشركين للكتاب مضطرب، فهم بين الاعتراف بجهلهم به وتمنيهم لو أنزل عليهم، وبين ابتداع دين وتصورات هي من علم الغيب، ومع ذلك رفضوا الكتاب الذي أنزل عليهم وقايسوه إلى معطيات شكلية تتعلق بالكتب السابقة، فكان الرد عليهم مباشراً وفي أوائل ما نزل من القرآن من خلال مساءلتهم عن الكتاب ومصدرية ما يدَّعونه، وغير مباشر ببيان طبيعة الكتاب الذي أنزل عليهم وبشكل متوال متواتر في مختلف السور، لاسيما المكية منها والسور المفتتحة بالأحرف المقطعة.

٤.كتاب أعمال الإنسان:

بما أن الكتاب سجل توثق به الأمور، فقد قرَّبَ الله عدالته من تصور الإنسان فجعل أعماله محصاة عليه، يتلقاها يوم القيامة في كتاب يلقاه منشوراً، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة[2]، فكل أمة تدعى إلى كتابها الذي

(١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأحقاف:٤، والآيات: فاطر:٤٠، الصافات:١٥٧، القلم:٣٧، الزخرف:٢١

(٢) الإسراء:١٣-١٤-٧١، الكهف:٤٩، المؤمنون:٦٢، الجاثية:٢٩، الحاقة:١٩-٢٥، النبأ:٢٩،

كتبته الملائكة عليها[1]، ويكون الكتاب بمثابة ناطق عليهم بأعمالهم[2]، وقد وصف بأنه مرقوم أي مسطور بيّن الكتابة كالرقم في الثوب لا يمحى، وشاع الرقم في الكتابة وهو أصل معناه[3].

٥. كتاب الله / علمه المحيط:

استعمل القرآن لفظ الكتاب للدلالة على كتاب خاص اختص الله بعلمه، يحتوي من العلم ما لا ينطبق إلا على الغيب وعلم الله المحيط الذين يُسيّر الكون وينظمه، فهو كتاب مبين فيه أحداث الكون بكلياتها وجزئياتها[4]، كما يشتمل هذا الكتاب على سنن الله التي ضبطت من

المطففين:٧-٩-١٨-٢٠، الانشقاق:٧-١٠.

(١)وقيل:هو الكتاب المنزل على الأمة أو اللوح المحفوظ، انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٢٥ ص١٥٥، القرطبي، التفسير، م.س، ج١٦ ص١٧٤-١٧٥.

(٢) الجاثية:٢٩، انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٢٥ ص١٥٦، القرطبي، التفسير، م.س، ج١٦ ص١٧٥

(٣)شاع الرقم في الكتابة وهو أصل معناه انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٣٠ ص٩٤-٩٥-٩٦، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٥ ص٤٦٥، القرطبي، التفسير، م.س، ج١٩ ص٢٥٨، أبو السعود، التفسير، م.س، ج٩ ص١٢٦، النسفي، التفسير، م.س، ج٤ ص٣٢٣، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٣٠ ص٧١.

(٤) ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

خلالها الآجال والأعمار والأقدار والأحداث سواء بالنسبة للأفراد أو الأمم أو الكون[1]، لذلك قال الله عن هذا الكتاب ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨)، وبالتالي فالكتاب يرادف علم الله المطلق، وقد استخدم تعبير كتاب الله في القرآن بمعنى علم الله[2]، وعبرت آية أخرى عن كون علم الله في كتاب[3]، تجليات علم الله هذا في الواقع بتغيراته المختلفة (المحو والإثبات) ترتبط بسنن إلهية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير وهي ما أسماه القرآن "أم الكتاب" التي يرجع إليها علم الكتاب، والتي عنها يصدر كتاب الله المقروء القرآن الذي له المكانة العلية والحكيمة في أم الكتاب.

واختص لفظ أم الكتاب بزخم معنوي خاص فسرت به ألفاظ الكتاب الأخرى، وقد وردت عبارة أم الكتاب في القرآن ثلاث مرات: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آل عمران:٧، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

الأنعام:٥٩، يونس:٦١، هود:٦، سبأ:٣، النمل٧٥.

(١) الأنفال:٦٨، الرعد:٣٨، الإسراء:٥٨، طه:٥٢، فاطر:١١، ق:٤، الحديد:٢٢

(٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ الروم:٥٦

(٣) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج:٧٠

﴿الْكِتَابِ﴾ الرعد:٣٩، ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الزخرف:٤

فآية آل عمران تتعلق بالكتاب القرآن وتقسيم آياته إلى محكمات ومتشابهات واعتبار المحكمات هن أم الكتاب بمعنى أصل الكتاب تُحمل المتشابهات عليها وترد إليها فالمراد بالكتاب كل القرآن، لكن بعض التفاسير عممت المقصود بالكتاب فاعتبروا الآيات المحكمات هن أم كل كتاب أنزله الله تعالى على كل نبي، وأن فيهن كل ما أحل وحرم وعللوا تسميتهن بأم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب أو لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن[1].

أما آية الرعد فبيَّنت ظاهرة تدخل الله في الكون عبر المحو والإثبات واختصاصه بأم الكتاب، وقد تنوعت وتعددت التفاسير في معنى أم الكتاب هنا فقيل:

- جملة الكتاب وأصله.
- علم الله القائم بذاته.
- لوح القضاء السابق الذي هو عقل الكل وفيه كل ما كان ويكون.
- اللوح المحفوظ.

---

(1) انظر: النسفي، التفسير، م.س، ج١ ص١٤٢، أبو السعود، التفسير، م.س، ج:٢ ص٧، الواحدي، التفسير، م.س، ج١ ص١٩٩، ابن كثير، التفسير، ج١ ص٣٤٥.

- الحلال والحرام.
- الذكر.
- العقل الأول.

ونقلوا عن ابن عباس أنه سأل كعباً (كعب الأحبار) عن أم الكتاب قال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً فكان كتاباً[1].

وظاهر ما في هذه التفسيرات من غموض واقتباس من الإسرائيليات، وهو ما سيتكرر في تفسير آية الزخرف التي تحدثت عن مكانة القرآن في أم الكتاب، فذكروا أن المقصود أصل الكتاب وجملته، وأصل كل شيء أمه فاستعير لفظ الأم للأصل، فالقرآن بما هو كتاب له أصل هو أم الكتاب، وقد فسرت بأنها:علم الله الأزلي أوالآيات المحكمات، أو اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية، فالقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ كما قال ﴿بل هو قران مجيد في لوح محفوظ﴾(البروج:٢٢)[2].

---

(١) انظر:الطبري، التفسير، م.س، ج١٣ ص١٧١ (وقد نقل روايات طويلة وعجيبة حول أم الكتاب:ج١٣ ص١٦٥– ١٧٠)، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج١٣ ص١٧٠، ١٧٨–١٧٩، المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: رضوان الداية، (دمشق: دار الفكر، ط:١، ١٤١٠هـ)ص٩٤.

(٢) انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٢٥ ص٤٨، البيضاوي التفسير، م.س، ج٢ ص٧، ج٣ ص٣٣٤، ج ٥ ص١٣٨، القرطبي، التفسير، م.س، ج٩ ص٣٣٣، ج١٦ ص٦٢،

هذه التفسيرات تشترك في كون أم الكتاب عَلم على كتاب اختص الله به، وهو معنى كتاب الله المحيط المعبر عنه بلفظ الكتاب، وفسروه بأنه أم الكتاب أو اللوح المحفوظ في الآيات الأخرى وبعضها يحتمل أكثر من تفسير[1]، واسم اللوح المحفوظ أصبح علماً لهذا الكتاب ومفسراً

الصنعاني، التفسير، (الرياض: مكتبة الرشد، ط:١٠،١٤١٠) ج٢ ص٣٣٨، النحاس، معاني القرآن، م.س، ج٦ ص٣٣٤، أبو السعود، التفسير، م.س، ج٥ ص٢٧، ج٨ ص٣٩، الواحدي، التفسير، م.س، ج١ ص٥٧٥، ج٢ ص٩٧٠، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج٤ ص٣٣٨-٣٣٩، ج٧ ص٣٠٢، النسفي، التفسير، م.س، ج٢ ص٢٢١، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج٤ ص٥٤٧، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٢٥ ص٦٤.

(١)مثلاً الآيات:الأنعام: ٣٨، الأعراف:٣٧، الأنفال:٦٨-٧٥، الإسراء:٥٨، طه:٥٢، الروم:٥٦، النمل:٧٥، فاطر:١١، الواقعة: ٧٨، الحديد:٢٢، وقد فسرت بأم الكتاب على أنه اللوح المحفوظ انظر تفسيرها في: الطبري، التفسير، م.س، ج٧ ص١٨٨، ج٨ ص١٦٨ وما بعدها، ج١٠ ص٤٤-٤٥، ج١٥ ص١٠٧، ج١٦ ص١٧٣، ج١٧ ص٢٠٠، ج٢٠ ص١١، ج٢١ ص٥٧-٥٨، ج٢٢ ص١٥٥، ج٢٧ ص٢٠٤-٢٠٥، ج٢٧ ص٢٣٣، القرطبي، التفسير، م.س، ج:٧ ص٢٠٣، ج١٣ ص٢٣١، ج١٤ ص٤٨، ج١٧ ص٢٢٤-٢٢٥، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٣ ص١٩، ج٤ ص٣٤٢، ج٥ ص٢٩٢، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج٣ ص٣٥، ج٣ ص١٩٣، ج٣ ص٣٨١-٣٨٢، ج٣ ص٣٨٧، ج٦ ص٣١٢، ج٨ ص١٥١، ابن كثير، التفسير، م.س، ج٣ ص٤٤١، الواحدي، التفسير، م.س، ج٢ ص٨٤٦، أبو السعود، التفسير، ج٨ ص٢٠٠، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج٢ ص١١٤، ج٢ ص٢٠٣، ج٥ ص١٦٠، ج٥ ص١٧٦، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٧ ص١٤٥، ج٨ ص١٣١، ج٢١ ص٦٠، ج٢٧ ص١٥٣-١٥٤، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، م.س، ج١ ص٢٧٧.

لألفاظ الكتاب الدالة على الغيب ولم يرد في القرآن غير مرة واحدة في سورة البروج ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ(٢١)فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)﴾ فتشير الآية إلى كون القرآن الكتاب السماوي الذي أنزل على الرسول الخاتم هو موجود في لوح محفوظ[1]، وفسرت بهذه الآية أم الكتاب التي أشير إلى كون القرآن فيها، وفي هذه الآيات ربط بين كتاب الغيب والكتاب السماوي المنزل.

٦.السياقات الإشكالية للكتاب :

هناك سياقات حيرت المفسرين في معنى الكتاب فيها فتعددت تفسيراته، وهي ما سنصطلح عليها بالإشكالية، وربما فسر بعضها بأحد المعاني سابقة الذكر، وسنعرض لما قيل فيها مبينين البعد الإشكالي في فهمها ونرجئ تعليقنا إلى النهاية:

---

(١) فسروا الآية بحفظ القرآن من الشياطين، ومن الزيادة فيه والنقصان منه، وذلك كونه مستنسخاً من اللوح المحفوظ وكذلك سائر الكتب المنزلة مستنسخة منه فهو محفوظ عند الله محروس به، وقرأ نافع محفوظ رفعاً على نعت القرآن فالمعنى إنه محفوظ من التحريف والتبديل، هذا وقد ذكر المفسرون روايات هي من قبيل العجائبيات المتداولة حول أمور الغيب المتعلقة بالسماء والعرش، كما نقلوا رأياً بأن اللوح المحفوظ هو جوهر مجرد ليس في حيز، انظر: الطبري، التفسير، م.س، ج٣٠ ص١٤٠، القرطبي، التفسير، ج١٩ ص٢٩٨، ابن الجوزي، زاد المسير،م.س، ج٩ ص٧٩ ، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٣٠ ص٩٤ .

١- الكتاب المسطور[1]:

افتتحت سورة الطور بقسم بالطور والكتاب المسطور، وقد فسر كونه مسطوراً بأنه مكتوب والسطر ترتيب الحروف المكتوبة في رق منشور، والرق ما رقق من الجلد يكتب فيه، والمنشور المبسوط أي في ورق منشور، وفُسِّر الرق بالفتح بما بين المشرق والمغرب، أي منسوخ ما بين المشرق والمغرب.

وقد اختلف في المقصود بالكتاب فقيل هو:

- القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ.
- سائر الكتب المنزلة على الأنبياء.
- ما كتبه الله في اللوح المحفوظ.
- الصحف.
- ألواح موسى عليه السلام اعتباراً لذكر الطور.
- ما تكتبه الحفظة من صحائف الأعمال.
- قلوب أوليائه وما فيها من المعارف والحكم.

---

(١) ﴿وَالطُّورِ(١)وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ(٢)فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ(٣)وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ(٤)وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ(٥)وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ(٦)﴾ الطور.

وذكروا أنه لا ينبغي أن يحمل شيء منها على التعيين وإنما على الاحتمال[1].

إن البعد الإشكالي واضح من خلال تعدد التفسيرات للكتاب، فهو من جهة يتخذ صفات الكتاب الذي يتداوله البشر من حيث ماديته وانتظامه بخط مسطور على ما يكتب عليه، ومن جهة أخرى يقترن بمعان تتصل بالكون ومخلوقات الله من جبال وبحار وسماء .. فأي صلة بين هذه المعاني والكتاب المسطور المنشور؟.

٢- الذي عنده علم من الكتاب[1]:

ذكر القرآن أن من حقق رغبة سليمان عليه السلام في إحضار عرش ملكة سبأ هو من عنده علم من الكتاب، فاختلف في الشخص وفي الكتاب الذي عنده علم منه فقيل: هو ملك بيده كتاب المقادير أو جبريل عليه السلام، وقيل هو رجل صالح كان يعلم اسم الله الأعظم أو هو سليمان عليه السلام أو شخص آخر يعلم الاسم الأعظم أو كان قد قرأ كتب الله سبحانه،

---

(١)انظر أقوال المفسرين في: الطبري، التفسير، م.س، ج٢٧ ص١٥-١٦، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٥ ص٢٤٤، القرطبي، التفسير، م.س، ج١٧ ص٥٩، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج٨ ص٤٥-٤٦، أبو السعود التفسير، م.س، ج٨ ص١٤٦، النسفي، التفسير، م.س، ج٤ ص١٨٣، البغوي، التفسير، م.س، ج٤ ص٢٣٦، الشوكاني ، فتح القدير، م.س، ج٥ ص٩٤، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٢٧ ص٢٧.

وبناء عليه فُسِّر علم الكتاب بتفسيرات مختلفة فهو:

- علمه بكتب الله المنزلة.
- أو بما في اللوح المحفوظ.
- أو علم ما كتب الله لبني آدم.
- اسم الله الأعظم وهو رأي الجمهور من المفسرين.
- وقيل علم كتاب سليمان إلى ملكة سبأ[2].

وهي تفسيرات متضاربة ومتناقضة تعبر عن حيرة ورجم بالغيب، والذي يثير الإشكال في فهم الكتاب هنا أن المخلوقات تطلع عليه وتستطيع بعلمها به أن تخرق المألوف والمعتاد، فأي علاقة بين هذا الكتاب والسياقات الأخرى التي ذكر فيها الكتاب ؟.

---

(١) حكاية عن سليمان:﴿قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ()قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ()قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل:٣٨-٤٠

(٢) انظر هذه الأقوال في: الطبري، التفسير، م.س، ج١٩ ص١٥٩-١٦٢-١٦٣، القرطبي، التفسير، م.س/ ج١٣ ص٢٠٥، الواحدي، التفسير، م.س، ج٢ ص٨٠٤، ابن الجوزي، زاد المسير، م.س، ج٦ ص١٧٥، النسفي، التفسير، م.س، ج٣ ص٢١٣- ٢١٤، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج٤ ص١٤٠، قال صديق حسن القنوجي "وفي الآية تنبيه على أنه اقتدر عليه بقوة العلم" أبجد العلوم (بيروت: دار الكتب العلمية ط:٢، ١٩٧٨) ج١ ص٩١ .

٣- الكتاب الذي علَّمه الله عيسى (عليه السلام)[1]:

يذكر الله في آيتين فضله على عيسى بن مريم بتعليمه الكتاب والحكمة، ولئن فَصَّل القرآن تعبير الكتاب على أنه الكتاب السماوي في بعض السياقات فإنه مستبعد عندما يرد ذكر الكتاب مقترناً بالتوراة والإنجيل، لذلك اختلف في تفسير الكتاب هنا فقيل:

- الكتابة والخط الذي يخطه بيده، وهو رأي معظم المفسرين.
- أنه كتب النبيين وعلمهم.
- أن أل في الكتاب للجنس أي جنس الكتب المنزلة وخص الكتابان لفضلهما.
- كتاب أو بعض الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه غير التوراة والإنجيل مثل الزبور وغيره[2].

وهي تفسيرات للخروج من الإشكال الواضح الذي يطرحه السياق من

---

(١)في بشارة الملائكة مريم بعيسى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ آل عمران:٤٨، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ المائدة:١١٠

(٢)انظر أقوال المفسرين في: الطبري، التفسير، م.س، ج٣ ص٢٧٤، ج٧ ص١٢٧، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٢ ص٤١، القرطبي، التفسير، م.س، ج٤ ص٩٣، ابن كثير، التفسير، م.س، ج١ ص٣٦٥، ج٢ ص١١٦، أبو السعود، التفسير، م.س، ج٣ ص٩٥، ابن الجوزي، زاد المسير، ج١ ص٣٩١، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٣ ص١٦٦، ج٧ ص٥٧

خلال اقتران الكتاب بالتوراة والإنجيل مع اسم عيسى الرسول الذي أنزل عليه كتاب الإنجيل، فما هو الكتاب إذاً وما صلته بالسياقات الأخرى؟.

٤- الكتاب بمعنى جنس الكتاب بشكل عام:

وردت سياقات عديدة لفظ الكتاب فيها غير محدد بكتاب بعينه، والمقصود به كتاب أنزل على الرسل، وتشير إلى كونه كتاباً واحداً أنزل على جميع الرسل، في حين أن الآيات الأخرى تشير إلى كتب متعاقبة أنزل كل منها على رسول، وللخروج من هذا الإشكال اعتبر المفسرون أن المقصود بالكتاب في هذه الآيات جنس الكتاب من غير تحديد كتاب بعينه بما يشمل كل ما أنزل على كل من الرسل، وبعضهم جعله الوحي، كما أشير إلى تفسيرات أخرى بعيدة، فيما لم تعرج بعض التفاسير لمفهوم الكتاب أصلاً[1]، ومعظم الآيات التي فسر بها الكتاب بجنس الكتاب تلك التي

---

(١)انظر أقوال المفسرين في مختلف الآيات: الطبري، التفسير، م.س، ج٢٧ ص٢٣٦-٢٣٧، ج٥ ص١٤٠، ج٢٢ ص١٣٣-١٣٤-١٣٦، ج٢٧ ص٢٣٧، القرطبي، التفسير، م.س، ج١٦ ص١٥، الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (بيروت:دار الكتب العلمية ط:١٩٩٥م١)، ج٤ ص٢١١، ٤٦٧، ابن حيان، البحر المحيط:١٧٥/٤، ٣٠٦/٤، ٢٢٧/٨، ٢٦٦/٨، الرازي (فخر الدين)، مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (القاهرة: البهية المصرية ١٩٣٥) ج٨ ص٢١٤، ج١٢ ص١٠، ج٢٧ ص١٥٩، ج٢٩ ص٢٤٠، الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، م.س، ص٤٥٠، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٢ ص٣٣١، ج٤ ص٢٦٨، ابن كثير التفسير، م.س، ج٣ ص٣٦٥، ابن الجوزي، زاد المسير،

تتعلق بـ:

- الكتاب الذي أنزل على الرسل ومما اقترن بالكتاب المنزل الميزان[1].
- الكتاب الذي سبق بين يدي الرسول الخاتم وجاء مصدقاً به[2].
- -الكتاب الذي آمن به الرسل أو أمروا بالإيمان به [3].

م.س، ج٢ ص٣٧٠، ج٦ ص٤٨٧-٤٨٨، ج٨ ص١٧٤، البغوي، التفسير، م.س، ج١ ص٤٤٢، أبو السعود، التفسير، م.س، ج٢ ص١٩٠، ج٦ ص٢٨٦، النسفي، التفسير، م.س، ج١ ص٢٢٧، ج٣ ص٣٤٣، ج ص/٢٢٠، الشوكاني، فتح القدير، م.س، ج٤ ص٣٤٩، الألوسي، روح المعاني، م.س، ج٢٢ ص١٩٤-١٩٥، ونقل عن ابن عباس تفسير الكتاب الذي جعل في ذرية نوح وإبراهيم في آية سورة الحديد:٢٦ بالخط بالقلم (انظر:ابن حيان، البحر المحيط، م.س، ج٨ ص٢٢٧، البيضاوي، التفسير، م.س، ج٥ ص٣٠٤) كما يرى الرازي في اقتران الكتاب والحكم والنبوة تفسير الكتاب بأنه فهم الكتاب والعلم به وحقائقه باعتبار أن الأنبياء لم ينزل الله على كل واحد منهم كتاباً (انظر:الرازي، التفسير، م.س، ج١٣ ص٦٨).

(١)﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ البقرة:٢١٣، ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ آل عمران:١٨٤، ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ فاطر:٢٥، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾الشورى:١٧، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ الحديد:٢٥

(٢) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المائدة:٤٨

(٣)﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ البقرة:١٧٧، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

● -الكتاب الذي أورثه الله ذرية إبراهيم والأنبياء ومن اصطفاهم[1].

هذه هي السياقات التي أشكل فيها معنى الكتاب في التفاسير، وبعرضها تكتمل الصورة حول ما ورد في القرآن عن الكتاب.

عود على بدء/ الكتاب في القرآن:

بدأنا بحثنا عن مفهوم الكتاب بالمعنى اللغوي فوجدنا أن كل ما ذكر في الكتاب قريب بعضه من بعض، والمعنى المشترك هو الجمع بين شيئين أو أكثر، فالكتاب هو المجموع من الحروف والكلمات الدالة على مقصود كاتبها، ويستلزم ذلك معنى لازماً له وهو الخط الذي تجمع من خلاله الحروف والكلمات، وبالتالي فالكتاب يشتمل على معنيين هما الجمع مع الانتظام، فتجمع الحروف وتنتظم بالخط والسطر، وهذا الجمع والانتظام

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ البقرة:٢٨٥ (في بعض القراءات كتابه بدل كتبه، انظر: الرازي، التفسير، م.س، ج٧ ص١٤٣، واعتبر الأصفهاني الإفراد أبلغ مقارنة بالآيات التي ذكرها القرآن من نزول الكتاب على الرسول، ولأن الكتاب للجنس ولأنه ليس لكل نبي كتاب بل بعضهم اتبع كتاب من سبقه (انظر: الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، م.س، ص٥٦٧)، ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ الشورى:١٥

(١) ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء:٥٤، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ العنكبوت:٢٧، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فاطر:٣٢، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الحديد:٢٦.

يرتبط ببعد مادي هو الحامل للخط، مما جعل الكتابة على سجل توثيقاً للقول الشفهي، ومن هذا البعد لوظيفة الكتابة أطلق الكتاب على معان أخرى على سبيل المجاز، واستخدم القرآن لفظ الكتاب بهذه المعاني – لاسيما اشتقاق الفعل- كالفرض والتوثيق والأجل..، إذ الكتاب هو المحدد لهذه المعاني والحامل لها، ولعل هذا المعنى هو الرابط بين لفظ الكتاب وما يحصى على الإنسان من أعمال وسلوك يحاسب عليه أو ما أسميناه كتاب الأعمال، فيكون ملحقاً بالاستخدامات اللغوية القرآنية للفظ الكتاب.

الجمع والانتظام كمعنى مركزي لمفردة الكتاب هو ما سنصحبه معنا في متابعة البحث عن مفهوم الكتاب في استخداماته القرآنية غير اللغوية، وثمة معنيان مركزيان للكتاب في القرآن، هما: الكتاب المنزل على الرسل، وكتاب الله المشتمل على علمه، وثمة ربط قرآني بينهما، وسنلخص أهم ما لاحظناه فيما يخص كل:

الكتاب المنزل على الرسل:

حديث القرآن يركز على صفات تدل على بعدين أساسيين: **الأول كونه إلهياً** وقد عبر عن ذلك ببيان مصدريته وصفات مضمونه من كونه لا ريب فيه هدى ورحمة للناس مبيناً وحكيماً ..، **أما البعد الثاني فهو كونه ينسجم مع مدركات الإنسان** فهو يقرأ ويتلى ويتدبر ويسترشد به، هذان البعدان يحددان جانباً من مفهوم الكتاب الذي يميزه عن الكتاب

بالمعنى اللغوي.

والمعني به أحد الكتب الثلاثة المنزلة على موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، (التوراة والإنجيل والقرآن)، لكن التوراة والإنجيل تكرر الحديث عنهما باعتبارهما يشملان مرحلة ممتدة تشمل أنبياء بني إسرائيل وأتباعهم الذين عبر عنهم بأهل الكتاب أو الذين أوتوا الكتاب، وقد مثَّل كتابهم مرحلة من مراحل تنزل الكتاب السماوي الذي ورثوه وتخلوا عنه وحرفوه، إلى أن جاء القرآن في عالم الأميين الذين لم يسبق لديهم كتاب ليكون طوراً جديداً من أطوار الكتاب السماوي، يصحح الكتب السابقة ويؤسس لمرحلة جديدة، سواء على مستوى ختم النبوة أو على مستوى مفهوم الكتاب، فطُول عهد الناس بالتوراة والإنجيل وتنزلهما في ألواح وصحف جعل منهما نموذج الكتاب السماوي، مما جعل المشركين يرفضون القرآن لعدم تشابهه معها، لكن لم يجب طلبهم لطبيعته العنادية ولكون الكتاب الإلهي في صيغته القرآنية يختلف عن الصيغ السابقة، لذلك جاءت كثير من سور القرآن تخاطب المشركين وفي افتتاحيتها أن الكتاب هو هذا الذي تقرؤونه وتتلونه وتسمعونه[1]، فعُبِّر عن بعض القرآن بالكتاب باعتبار ما يتنزل منه، وكان يتلقاه الناس

---

(١)انظر حول مفتتحات السور وارتباطها بالكتاب وصفاته: منير، وليد، النص القرآني من الجملة إلى العالم (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط:١، ١٩٩٧)، ص٧٩ وما بعدها.

شفاهاً من غير صحف أو خط (جاءت كتابة القرآن لاحقاً لوصفه بالكتاب، وجمعه لاحقاً لاكتمال نزوله) ومع ذلك سمي كتاباً رغم أن الخط شرط لغوي لازم لوصف الكتاب والكتابة، وهذا يدل على تحول قرآني في مفهوم الكتاب السماوي السائد في تصور العرب[١]، ووصف القرآن بالكتاب فضلاً عن كونه استمرارية وتطوراً في تنزل الكتاب الإلهي فيه ربط بين ما أنزل على الرسول الخاتم ومن سبقه من الرسل[٢].

---

(١)وهذا يبطل ربط بعض الباحثين بين القرآن ككتاب وتحول العرب من الشفاهية إلى الكتابية في الفكر والثقافة، فإن مفهوم الكتاب القرآني بمعزل عن مفهوم الكتابة، ولئن كان للقرآن أثر -ليس موضع جدل- في تطور الكتابة عند العرب فذلك لا يعود – فيما نرى – لوصفه كتاباً إنما لأثره الحضاري الشامل وحثه على العلم، ثم إن الكتابة كانت معهودة عند العرب ومنتشرة، (انظر القول بالعلاقة بين مفهوم الكتاب والتحول إلى الكتابية في الثقافة: أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص (بيروت:المركز الثقافي العربي، ط:٤، ١٩٩٨) ص٥٥، أركون، محمد، القرآن:من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، (بيروت: دار الطليعة، ط:١، ٢٠٠١) ص:٨١ ، طلبة، منى، قراءة القرآن بين الوعي الشفاهي والكتابي، بحث منشور ضمن كتاب: النزعة الإنسانية في الفكر العربي/دراسات في النزعة الإنسانية في الفكر الوسيط، تحرير: عاطف أحمد، (القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، د.ت) ص٥٤، ويرى ابن عاشور في تسمية القرآن كتاباً إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه (انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج١ ص٢٢١).

(٢) انظر: قراءة، سنية، الرسالات الكبرى، (القاهرة:مكتب الصحافة الدولي١٩٦٦) ص٧٤٩ .

لكن القرآن اشتمل على آيات تحدثت عن الكتاب المنزل من غير تحديد أو إشارة إلى كتاب بعينه، وقد فسرت كما رأينا على أنها جنس الكتاب، لكن هذا التأويل يعود على تفسير السياقات الأخرى بإشكال حول معناها باعتبار تشابه السياق والتعبير، وبما أن الصيغ المنزلة من الكتاب الإلهي على الرسل واحدة المصدر ومشتركة في قسم كبير من المضمون، فبوسعنا اعتبار هذا القدر المشترك بين مجموعها هو كتاب واحد أنزل على جميع الرسل[1]، ونفسر به الكتاب الذي ذكرت الآيات أنه أنزل على جميع النبيين، فهو كتاب يتضمن القضايا المشتركة بين جميع الرسالات، وهذا لا يعني انفصاله عن الكتب المنزلة المذكورة، فهو جزء منها وأنزل على مجموع الرسل كما أشارت الآيات وإن لم تذكر له اسماً أو يرتبط كل رسول به مفرداً، وهو نفس ما أشار إليه بعض المفسرين عند تفسير أم الكتاب التي هي الآيات المحكمات على أنها أم كل الكتب التي

---

(١) أشارت إلى هذا المعنى سراب الحافظ، (انظر:الشرائع السماوية،(دمشق: المنار، ط:١، ١٩٩٧)، ص٢٤ وما بعدها) لكنها خصت الكتاب هنا بالنبيين مفرقة بين كتاب النبوة والرسالة متأثرة في ذلك بمحمد شحرور، لكن ما ذكرناه أعلاه بمعزل عن هذا التصنيف والتفريق الذي تنفيه صريح الآيات التي لا تفرق بين كتاب نبوة وكتاب رسالة، كما أن اشتراك الأنبياء في وجود كتاب ترتبط به دعوتهم وكما يطرحه القرآن هو بمعزل عن الكتاب الديني المعهود في الأديان القديمة في الشرق الأوسط القديم على أنه أحد الرموز للمخيال الديني المشترك، وهو المعنى الذي فسر به بعض المستشرقين مفهوم الكتاب بالقرآن ومن نحا نحوهم (محمد أركون، القرآن، م.س، ص١٩).

أنزلت»، فيكون الكتاب الواحد الذي أنزل على جميع الرسل هو القدر المشترك بين جميع الكتب المنزلة المعلومة والذي صدقت بعضها بعضا به، وهو الذي سمي في القرآن بأم الكتاب أو الآيات المحكمات، وبه يفسر الكتاب الذي عُلِّمه عيسى عليه السلام على وجه العموم ثم علم التوراة والإنجيل على وجه الخصوص، وكذلك الآيات التي فسر بها الكتاب بمعنى جنس الكتاب المنزل، كالذي صدق به الرسل والذي أنزل على جميعهم، وهو الكتاب الذي جاء القرآن تفصيلاً له. هذا ما استخلصناه حول الكتاب المنزل، أما الكتاب الذي اختص الله به.

كتاب الله / علمه المحيط:

أول ما يستوقف المتأمل في الآيات المصنفة تحت هذه الزمرة من استخدامات الكتاب في القرآن هو طابعه الشامل والمحيط الذي لم يفرط فيه من شيء، وهي خاصية مهمة في معرفة معناه، وفي التعبير عن نفس المعنى بأم الكتاب نلحظ خاصية الثبات والاستقرار، كما نلحظ في الآيات الأخرى ارتباط الكتاب بما يجري في الكون من حركة وتغيرات على جميع الأصعدة مع إشارة إلى قدم هذا الكتاب وأسبقيته، فهو كتاب قائم منذ خلق الله السماوات والأرض، ومن الآيات التي حيرت المفسرين آية سورة الطور ووصف الكتاب فيها بأنه مسطور، وقد ذكر ضمن الحديث عن الكون ومخلوقات الله، كما أشارت آيات أخرى إلى كون كتاب الله المنزل/القرآن موجود في هذا الكتاب الشامل الذي سمي

بكتاب مكنون أو أم الكتاب، وفسر هذا الكتاب باللوح المحفوظ كما أشرنا، كل هذه المعاني تدعو للتساؤل عن أية علاقة تربط بين مختلف هذه الخصائص ومعنى الكتاب، إن القول بأن هذا الكتاب بما هو اللوح المحفوظ عبارة عن كتاب مادي ذي خاصية إلهية وبالتالي هو من قبيل ما يعرف بالآيات المتشابهات وعلينا التسليم به هكذا سيثير من الإشكالات أكثر مما يحل، ففضلاً عن إشكالية المنهج في التعامل مع هذه الآيات التي تعطل تدبر القرآن وتحيل المعاني إلى ألغاز يسلم بها المؤمن من غير فهم، فإن سياقات الكتاب في هذه الآيات تنبه الإنسان إلى رابط بين مخلوقات الله كلها، وتدعوه إلى تدبره وتأمله والنظر فيه، هذا الرابط هو ما عبرت عنه الآيات بالكتاب أو أم الكتاب وما وصف به من صفات، فكيف يمكن الربط بين هذا المعنى وتعبير الكتاب.

لقد استحضرنا من معاني لفظ الكتاب الجمع والانتظام، جمع الأحرف والكلمات المتناثرة وانتظامها عبر السطر والخط لتشكل معاً وحدة متكاملة من جزئيات متراكبة، هذا المعنى هو ما نجده في السياقات التي ورد فيها لفظ الكتاب، فمخلوقات الله الجزئية والمتنوعة والمتفرقة تجتمع كلها معاً بقانون ونظام يشكل مجموعها هذا الكون الذي نراه والذي يسير عبر سنن ثابتة لم تتغير، فحركة الكون وتغيراتها (المحو والإثبات) ترتبط بنظام محكم وقدر إلهي لا يتغير.

هذا التقابل بين خاصية الجمع والنظام في معنى الكتاب، وبين

اجتماع مخلوقات الله في نظام يشكل الكون يعطينا المفتاح لفهم معنى الكتاب في القرآن، وباسترجاعنا ما أشرنا إليه من القول بوجود لغة رمزية في القرآن تخص المفردات ذات البعد الثنائي في علاقتها بالله من جهة والإنسان من جهة، فإن مفردة الكتاب هي من هذا القبيل، فهي - فيما نرى - ترمز إلى النظام الوجودي الذي يُسَيِّر الكون الذي خلقه الله وفق سنن ثابتة، فعُبِّر عنه بالكتاب لكون مفردات الكون تجتمع كلها لتشكل وحدة كما تجتمع الحروف والكلمات لتشكل كتاباً، فالمخلوقات تجتمع وتنتظم بالقانون الإلهي كما تجتمع الحروف والكلمات بالسطر، وبهذا المعنى يمكن فهم كيفية الحفظ الإلهي .للقرآن/ الكتاب المنزل، وذلك بالتوافق بين الكتابين الكون الإلهي والقرآن[1]، فكل منهما يؤكد الآخر ويصدقه، ومن هنا كانت دعوة القرآن إلى النظر في الكون، كما يفسر هذا المعنى للكتاب المعنى المزدوج للقراءة عند الأمر الأول بها، أي قراءة الكون وقراءة القرآن ووحدة مآلهما ونتيجتهما[2].

---

(1) وجدنا من السابقين من فرق بين نوعين من الكتاب، الكتاب الكوني لكنه قصد به التكويني بمعنى الكتاب الذي قدرت فيه الأمور، والكتاب الشرعي الديني وهو الذي كتبت فيه التكاليف والأحكام. (انظر: الحنفي، أبو المعز، شرح العقيدة الطحاوية (بيروت: المكتب الإسلامي، ط:٤، ١٣٩١ هـ) ص٥٠٦).

(2) حول معنى الأمر "اقرأ" ونظرية القراءتين لدى محمد أبو القاسم حاج حمد انظر: حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، م.س، ج١ ص٤٥٦ وما بعدها.

والمعنى الذي أوضحناه سيحل إشكالاً في فهم سر ما قام به الذي عنده علم من الكتاب في قصة ملكة سبأ مع سليمان ﷺ، فمن عنده علم من الكتاب استطاع أن يحقق أمراً بدا خارقاً، لكن القرآن ربط الأمر بقانون محكم يمكن للإنسان أن يطلع على بعضه بالبحث والعلم أو بإلهام إلهي، فالعلم من الكتاب هنا هو فهم قانون إلهي واكتشاف سر في نظام الأشياء يمكن من خلاله تغيير ما ألف من حركتها.

وبهذا نكون قد أجملنا مفهوم الكتاب في القرآن (بمعناه غير اللغوي) ضمن محورين متكاملين:الكتاب الإلهي المنزل على الرسل وهو كتاب مشترك بينهم نزل على جميعهم، كما تحدث القرآن عن ثلاث صيغ منزلة من الكتاب الإلهي تتضمن الكتاب المشترك بين الرسل وتزيد عليه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن. والكتاب الإلهي المحيط بالكون وقد سمي بأم الكتاب واللوح المحفوظ، ودلالة هذا الكتاب رمزية تحيل على النظام الوجودي والسنن الإلهية التي تحكم الكون وتسيره.

العلاقة بين الأسماء والكلمات والكتاب:

إذا كان كتاب الله هو الاجتماع المنتظم لمفردات الكون ويقابله اجتماع كلمات الله بإحكام وتفصيل، فإن الكتاب بنوعيه هو اجتماع الكلمات الإلهية، فكلمات الله التكوينية تجتمع لتشكل كتاب الله الكوني،

وكلماته الشرعية يشكل مجموعها كتاب الله المنزل.

وتتم قراءة الكلمات والكتاب بنوعيهما الكوني والشرعي من خلال الأسماء التي ترمز ملكة المعرفة لدى الإنسان، فتكون تلك المفردات القرآنية هي مفاتيح العلاقة بين الإنسان والله والكون، فمن خلال ملكة المعرفة لدى الإنسان التي أعطاه الله إياه (الأسماء) يتواصل مع الوحي والتعاليم الإلهية بجزئياتها (الكلمات التشريعية) أو بكليتها (الكتاب المنزل)، كما يتواصل مع مخلوقات الله في هذا الكون الإلهي (الكلمات التكوينية) ومع نظام الوجود (الكتاب المسطور)،

تلك العلاقة التواصلية مبنية على أسس تنطلق من زاوية محورها الإنسان ينطلق من خلالها إلى آفاقه الكونية والشرعية من خلال ارتباطه الوثيق بالله مكون الأشياء والمتجلي على خلقه ومخلوقاته بما أحكمه من سنن يسير عليها الكون، ومن خلال التعمق في درس المفاهيم القرآنية يمكن اكتشاف معالم وتفصيلات هذه العلاقة بين الإنسان والعالم والأنظمة التي تحكمها، وبالتالي اكتشاف وجه أدق من إحكام النظم القرآني والنظام المفاهيمي الذي يشتمل عليه، ويجيب عن مساءلات الإنسان حول النص وآفاقه في مسيرة الإنسان في هذا الكون.

الفهرس

هذه السّلسلة عن "المفهومات القرآنيّة" إثراءٌ للمعارف القرآنيّة، فتضع مدخلاً منهجيّاً يكشف عن أفق هذا اللّون من الدّرس القرآنيّ، وتجسّد هذا الطّموح بنماذج تطبيقيّة وعمليّة لدراسة المفهومات القرآنيّة كنموذج للتّدبّر في محكم القرآن وتفصيل آياته، والمتجلّي بوضوح في ضبط المفهومات الكلّية المعبّر بها عن تكامل المعنى القرآنيّ في أماكن ورودها التفصيليّة، وستكون هذه السّلسلة خطاً يشتمل على نماذج من الدّراسات المفهوميّة الّتي تنضبط بالمحدّدات المنهجيّة الّتي يرسمها المدخل إلى دراسة هذه المفهومات، والّتي تنمّ عن الآفاق الّتي يرومها هذا اللّون من الدّرس، وهي وإن بدت دراساتٌ متفرّقةٌ في عناوين أجزائها فإنّ الخيط المفهوميّ الجامع بينها سيقود القارئ إلى الوصل بينها وبين المفهومات القرآنيّة الأخرى، وإنّ كلّ مفهوم منها يمثّل وحدة متكاملة وعنصراً في حقلٍ مفهوميٍّ أشمل، ولا يدرك معناه في سياق فلكه المفهوميّ ما لم يدرس مستقلاً أولاً.

وستجعل دراسة هذه المفهومات -كنموذج- قارئ القرآن بعدها يتذوّق معنىً جديداً فيه، هو لونٌ من ألوان الإحكام والتّفصيل والتّشابه بين آياته.

وبكلمةٍ يمكن القول .. إنّها مقارباتٌ في التّدبر تبحث عن الّتي هي أقوم.



دار الريادة للنشر والتوزيع
www.arreyada.com

ISBN 978-9933-9050-5-7


دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع
www.dar-almultaka.net